

عمل الروح القدس فى الكنيسة الاولى بقوة. وكانت الكنيسة آلة طيعة فى يد الروح، فعمل بها عجباً.. وكان من ثمار عمله صفحة الاستشهاد المشرقة، ولشرح هذا نقتبس من كتاب

"الإستشهاد فى المسيحية"

لمثلث الرحمات المتنيح الأنبا يوانس

أسقف الغربية

روما (الإمبراطورية الوثنية)

تمهيد

دخلت المسيحية الناشئة مع الوثنية العجوز العاتية فى صراع طويل مرير قرابة ثلاثة قرون من الزمان ونعنى بالوثنية هنا الامبراطورية الرومانية التى كانت أكبر دولة منظمة وأكبر قوة عسكرية وقتئذ، وشملت ممتلكاتها الشاسعة معظم العالم القديم المعروف.

كانت الوثنية هى العدو الأكبر الذى تصدى للمسيحية، وقاومها مقاومة المستميت، وحاربها حرب الإبادة، حرب الحياة أو الموت. ولا يسجل التاريخ صداما أقوى وأطول وأكثر وحشية من ذلك الصراع الذى احتدم بين روما الامبراطورية الوثنية بألهتها وأباطرتها وجحافلها، وبين المسيحية التى ظهرت على مسرح العالم بلا سند من قوة زمنية، وبلا سلاح حربى اللهم الا ترس الايمان، ودرع البر، وخوذة الخلاص، وسيف الروح... (أف ٦).

كانت المعركة تبدو غير متكافئة... معركة السيف مع الصليب، والقوة المادية مع المثاليات الأدبية الروحية... ويستتر خلف هذه المعارك المنظورة قوات العالم غير المنظور - الله فى ناحية وسلطان الظلمة وجنوده فى ناحية أخرى... كانت معركة حياة أو موت لأى من الطرفين... كان التراخى أمرا يستحيل تحقيقه... وكان لابد لطرف أن يخضع للطرف الآخر وهكذا ظلت هذه الحرب قائمة حتى أوائل القرن الرابع المسيحى حين اندحرت الوثنية - ممثلة فى الدولة الرومانية - نهائيا، وارتفع الصليب.

لقد بدأت سلسلة هذه الحروب فى روما ذاتها تحت قيادة نيرون، وانتهت عند قنطرة ملفيا، على بعد ميل واحد من روما على يد قسطنطين. كان القصد من تلك السلسلة الطويلة من الحروب. إبادة المسيحية وملاشاتها، لكنها - على العكس - كانت

سببا فى تنقيتها وإظهار فضائلها، ونماذج من بطولة أتباعها، الأمر الذى أدى الى انتشارها أكثر، بدخول كثيرين من الوثنيين فى الايمان المسيحى. وقد عبر عن ذلك العلامة تريليانوس - وهو الذى عاصر الاضطهادات دون أن يرى نهايتها - بقوله "دماء الشهداء بذار الكنيسة".

أثر الديانة الوثنية على العقلية الرومانية

لا يمكن فهم موضوع تحدى الامبراطورية الرومانية الوثنية الضاربة فى القدم، للديانة المسيحية الناشئة ابان ظهورها وفى طور طفولتها، ما لم نفهم نفسية الإنسان الرومانى من جهة الدين والآلهة التى كان يتعبد لها وأثرها فى حياته.

ان موضوع الاستشهاد فى المسيحية على يد الدولة الوثنية يبدو غريبا. وغالبا ما تصور سير الشهداء أن سبب استشهادهم هو رفضهم السجود لتمثال الإمبراطور أو الاشتراك فى التبخير للآلهة... الخ. لكن هذه الإشارة وحدها غير كافية لفهم هذه القضية، إذ أنها تقدم لنا صور ساذجة لتصرفات دولة عظيمة وأباطرة عظام!! وخير ما يعيننا على فهمها كما قلنا - هو الوقوف على التأثيرات النفسية للديانة الوثنية على الإنسان الرومانى القديم. هذا هو رأى العلامة فوستيل دى كولانج فى كتابه "المدينة العتيقة" دراسة لعبادة الإغريق والرومان وشرعهم وأنظمتهم^(١). وهو يعتبر حجة فى هذا الموضوع - يقول:

"تأمل أنظمة الأقدمين دون تفكر فى معتقداتهم تجدها غامضة، شاذة، غريبة، لا تفسر... ولكن بوضع المعتقدات قبالة هذه الأنظمة وهذه القوانين فسرعان ما تصبح الوقائع أكثر جلاء، ويعرض تفسيرها من تلقاء نفسه"^(٢) والآن نعرض لأثر الدين على الرومان فى مختلف نواحي حياتهم:

فى الحياة الخاصة:

كان الدين هو كل شئ فى حياة الانسان القديم، كما كان هو المحرك الأول والاخير له فى حياته وكل تصرفاته. يقول: **Fustel de Coulanges** "كان الدين يتدخل فى كل علاقة وحركة فى حياة الإنسان الوثنى وأسرته وحياته العامة. حينما يولد الإنسان، وحينما يتزوج، وحينما يموت، يجب عليه أن يستعطف الآلهة ويسترضيهم لنلا يؤذونه، أو فى القليل لا يسببون له حزنا. فى زوايا الشوارع، وعند أبواب البيوت، فى الصالات، وحجرات النوم، بل وفى كل مكان كانت العين تصطدم بصور الآلهة الوثنية. ويتبع ذلك الاحتفالات وما فيها من تقدمات دينية للآلهة..."^(٣)

(1) Faustel de Coulanges: La Cité Antique, Etude sur le culte, le droit, les Institutions de la Grèce et de Rome

(٢) المدينة العتيقة ص ٤، ٥، ص ٢٢٠

(٣) المدينة العتيقة ص ٢٢٠

فى الحياة العامة:

"...لم يكن هناك عمل واحد من أعمال الحياة العامة لا يدخلون الآلهة فيه. وحيث أنه كانت تتسلط على الإنسان فكرة أن الآلهة طورا تكون حماة ممتازة، وطوراً أعداء الداء، فإنه لم يكن يجرؤ اطلاقاً على إتيان عمل ما دون أن يكون واثقاً من أنهم (الآلهة) راضون عنه"

فى حياة الزارع:

"كان كل عمل فى حياة الزارع مصحوباً بالقرابين. وكانوا يقومون بالأعمال وهم يرتلون الأناشيد المقدسة. ففى روما كان الكهنة يعينون كل عام اليوم الذى يجب أن يبدأ فيه قطف العنب، واليوم الذى يستطيعون فيه أن يشربوا الخمر الجديدة. كانت الديانة تنظم كل شئ والديانة هى التى تأمر بتشذيب الكروم"^(٤)...

جلسات مجلس الشيوخ:

"لم يكن الشعب يجتمع فى المجمع الا فى الايام التى تسمح له الديانة فيها بذلك... وفى روما كان لابد قبل دخول جلسة مجلس الشيوخ من تأكيد المستخيرين أن الآلهة راضية. وكان المجمع يبدأ بصلاة يتلوها المستخير ويكررها القتل بعدة... وفى روما كان المكان الذى يجتمع فيه مجلس الشيوخ هو أحد المعابد دائماً. وإذا عقدت جلسة فى مكان آخر غير مقدس فإن القرارات التى تتخذ يلحقها البطلان. إذ أن الآلهة لم يكونوا حاضرين فيها. وقبل كل مداولة يقدم الرئيس قرباناً ويتلو دعاء. وكان فى القاعة مذبح يريق عليه كل شيخ السكائب عند دخوله ويدعو للآلهة..."^(٥).

فى القضاء:

"وكانوا لا يجلسون فى المدينة، فى روما كما فى أثينا، الا فى الأيام التى تبين الديانة أنها من أيام القبول..."^(٦).

فى الحرب:

"وكان للديانة من السيطرة فى الحرب بقدر ما كان لها فى السلم على الأقل، وكانت فى البلدان الايطالية فرق من الكهنة تسمى "فسيالس **feciales**" ترأس جميع الاحتفالات المقدسة الناتجة عن العلاقات الدولية وكان الفسيالس **feciales** يعلن الحرب وهو يتلو صيغة مقدسة بعد أن يكون قد غطى رأسه بقتاع من الصوف، طبقاً للشعائر، واستشهد بالاله. وفى نفس الوقت يقدم القتل قرباناً وهو مرتد

(٤) نفس المصدر ص ٢١٥.

(٥) نفس المصدر ص ٢٢٠-٢٢٢.

(٦) نفس المصدر ص ٢٢٢.

الملابس الكهنوتية. ويفتح فى احتفال معبد اقدم معبود فى ايطاليا وأكثرهم تبجيلا: معبد جانوس. وقبل القيام بحملة يجتمع الجيش ويتلو القائد أديته ويقدم قربانا... وكان الجيش أثناء المعركة يمثل صورة للمدينة، وكانت ديانتها تلاحقه... يحملون معهم تماثيل معبوداتهم. وكان كل جيش يحمل معه موقدا ويغذى ناره المقدسة ليل نهار. وكان يرافق الجيش الرومانى الكهنة والمستخرون... وكانوا يقدمون قربانا بعد كل انتصار. وذلك هو الاصل فى موكب النصر المعروف جيدا لدى الرومان. وهذه العادة هى نتيجة الرأى الذى كان ينسب النصر لآلهة المدينة..."^(٧).

فى كل شئ:

وهكذا كانت الديانة تتدخل فى كل الأعمال، فى زمن السلم وفى زمن الحرب كانت حاضرة على الدوام، محيطة بالإنسان. فكان كل شئ تحت سيطرة ديانة المدينة. الروح، والجسد، الحياة الخاصة، والحياة العامة، الأكلات، والأعياد، والمجامع، والمحاكم، والقتال. كانت تنظم كل أعمال الانسان، وتتصرف فى جميع لحظات حياته، وتعين كل عاداته. كانت تحكم الكائن البشرى بسلطان مطلق بلغ من أمره أنه لم يبق أى شئ خارجا عنها.^(٨)

وحسنا قال المؤرخ الكبير شاف Schaff "كانت العبادة الوثنية تتداخل فى كل مرافق الدولة الرومانية، كخيوط النسيج الواحد المغزولة معا. بل لقد جعلت من الدين أداة لسياستها"^(٩).

وهكذا نفهم السر فى مقاومة الدولة الرومانية الوثنية - من أباطرة وحكام وشعب وكهنة - للمسيحية والمسيحيين. لم تكن المسألة أذن مسألة رفض المسيحيين السجود للآلهة أو التقريب لها... الخ. لكن المسألة كانت أعمق من ذلك بكثير. فقد كان الرومان يعتقدون أن أمنهم ورفاهيتهم، وحياتهم، وكل شئ متعلق بآلهتهم، وأن هؤلاء المسيحيين انما هم أعداء للآلهة... لذلك فحينما كانت تحل الكوارث والنكبات فى الدولة - سواء فى الحروب و المعارك أو بسبب الكوارث الطبيعية كفيضانات الأنهار أو الزلازل والبراكين أو الأوبئة والمجاعات أو القحط والجذب بسبب قلة الأمطار - كانت ترتفع أصوات جميع الوثنيين على السواء: هذا بسبب أعداء الآلهة... وأن الآلهة غير راضية عن الدولة لتركها هؤلاء المسيحيين وشأنهم.

اليهودية فى روما

من الملائم أن نعرف شيئا عن المسيحية والإنسان المسيحى فى روما

(٧) المدينة العتيقة ص ٢٢٢ - ٢٢٤.

(٨) نفس المصدر ٢٢٠ - ٢٢٦.

(9) Schaff: History of the Christian Church, vol. 2, p. 41.

باعتبارها قلب تلك الدولة الجبارة، بل ومركز العالم القديم كله، ومنها نبع سيل الاضطهاد الذى منى به جميع المسيحيين فى أنحاء الامبراطورية. وحيث أن أولى المشكلات التى واجهت المسيحية فى روما فى بادئ الأمر هى اعتبارها شيعة يهودية، حاق بها كل ما حاق باليهودية، لذا يحسن أن نعرف شيئا عن موقف روما من اليهود.

على الرغم من أن اليهودية كانت ديانة مسموح بها فى الامبراطورية الرومانية كإحدى الديانات القديمة^(١٠)، لكنها كانت موضع دهشة وسخرية معاصريها من النقاد والمؤرخين، بما لها من عادات وأنظمة وطقوس خاصة كالختان وحفظ السبت، والامتناع عن أكل الخنزير ولحم الذبائح المضحى بها للآلهة الوثنية. فما كان مقدسا للوثنيين كان نجسا لليهود. وفوق ذلك فقد كانوا معتبرين كأعداء للجنس البشرى.

لكن ذلك لم يمنع اليهود من أن يكون لهم أصدقاء من بين الرومان، يقدرون اجتهادهم ومثابرتهم وإيمانهم فى الهمم، الامر الذى كان له تأثير عميق على بعض المفكرين وخاصة النساء. لذا لا نعجب أن علمنا أنه كان يوجد عدد لا بأس به من الرومان المتهودين فى روما . ويشهد يوسيفوس المؤرخ اليهودى من القرن الأول المسيحى، أن بعض الرومان امتنعوا عن كل عمل يوم السبت، وصاموا وصلوا ودرسوا الشريعة الموسوية، وأرسلوا تقدمات الى الهيكل فى أورشليم. حتى أن الفيلسوف الوثنى سينكا Seneca فى القرن الأول المسيحى، وكان يمقت اليهود، قال عنهم فى حسرة "لقد قدم هذا الشعب المقهور تشريعات لقاھريهم".

فعلى الرغم من أن غالبيتهم كانوا أحفاد عبيد وأسرى القياصرة بومبى Pompey وكاسيوس Cassius، وأنطونيوس، فقد جمع كثير منهم ثروات طائلة عن طريق الاشتغال بالتجارة، والشئون المصرفية، أو الطب، أو التنجيم.

هذا، وقد طرد اليهود مرتين من روما تحت حكم طيبريوس و كلوديوس. ويؤيد ذلك كاتب سفر أعمال الرسل (أع ١٨ : ٢). لكنهم سرعان ما عادوا إليها. ولما وصل بولس إليها دعا وجوه اليهود الى اجتماع لكى يظهر لهم نواياها الطيبة ويبشرهم بالإنجيل. لكنهم جادلوه بتحفظ ومكر، وأظهروا أنهم لا يعرفون شيئا عن المسيحية سوى أنها مذهب يقاوم فى كل مكان. وكانت سياستهم أن يتجاهلوها بقدر امكانهم. ومع ذلك حضر عدد كبير لسماع بولس فى يوم محدد، وآمن البعض، لكن الغالبية لم تؤمن^(١١) (أع ٢٨ : ١٧-٢٩).

(١٠) كانت اليهودية تتمتع بحماية خاصة منذ عهد يوليوس قيصر

Schaff, vol. 2, p. 40

(11) Schaff, vol. 1, pp. 363-366.

وصول المسيحية الى روما

لا نعرف على وجه التحديد متى دخلت المسيحية روما. ليس ما يمنع أن تكون بشرى الخلاص قد وصلت إليها عقب مولد الكنيسة في يوم الخمسين مباشرة عن طريق الذين شهدوه وكان بينهم رومانيون مستوطنون يهود ودخلاء (أع ٢: ١٠). وبولس الرسول يحيى بين الاخوة الذين في روما بعض أنسابه الذين تنصروا قبله - أى قبل سنة ٣٦ أو ٣٧ م - (أنظر رو ١٦: ٧). وكثير من أسماء الاخوة الرومان الذين بعث إليهم بولس تحياته في (رو ١٦)، وجدت مدونة بين أسماء الرجال الذين اعتقلتهم الأمبراطورة ليفيا Livia في مقبرة اليهود على طريق أبى Appian Way بروما. هذا، ولا يستبعد - فى وسط الحماس البالغ للمسيحية فى فجر ظهورها - أن يكون قد حضر روما - عاصمة الأمم وقتئذ - مسيحيون من فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان لاسباب مختلفة، أما كزائرين أو مستوطنين. وهؤلاء حملوا إليها بشرى الخلاص قبل وصول بولس الرسول.

أول أثر تاريخى للمسيحية فى روما - فى غير الكتب المقدسة - نجده فى كلمة عابرة دونها المؤرخ الوثنى سيوتونيوس Suetonius. قال إن الامبراطور كلوديوس - حوالى سنة ٥٢ م - طرد اليهود من روما بسبب ميلهم للتمرد على السلطة الحاكمة وفتنتهم بتحريض CHRESTUS^(١). ولقد أشار القديس لوقا كاتب سفر الأعمال الى هذا الحادث (أع ١٨: ٢). ومن المحتمل جدا أن تكون هذه الفتنة سببها المجادلات بخصوص شخص المسيح بين اليهود والمسيحيين، الذين كانوا ينظر إليهم كشبيحة يهودية مستحدثه^(٢).

يضاف الى ذلك أن التبشير بالمسيح كملك اسرائيل الحقيقى، لابد وانه أثار فتنة كبيرة بين اليهود. بل أن بعض اليهود الماكرين اتخذوا من ذلك مادة للوشاية و الشكاية لدى السلطات الحاكمة ضد المسيحيين (أنظر أع ١٧: ٧، ٨). وكان الحكام الوثنيون - لجهلهم بالامر - يستنتجون أن المسيح مدع سياسى. ومطالب بعرش أرضى، فى الوقت الذى رفض فيه اليهود مسيا الحقيقى وتطلعوا الى آخر حسب تصورهم، يحررهم سياسيا من الاستعمار الرومانى، ويعيد دولة داود الدينية فى اورشليم. وقد حدا ذلك بالامبراطور دومتيان (٨١-٩٦) أن يرغب فى إبادة ذرية داود الاحياء. فأرسل وأحضر من فلسطين الى روما اثنين من أقارب الرب يسوع بالجسد، وهما حفيدا يهوذا المدعو "أخا الرب"، لكن ما أن أطلع على فقرهما وبساطتهما، وسمع منهما عن معنى ملك المسيح، وأنه ليس ملكا أرضيا عالميا، بل سماويا حتى

(١) هذه الكلمة هجاء خاطئ لكلمه CHRISTUS لقد خلط الرومان بين هذه الكلمة الثانية ومعناها الممسوح، ومنها كلمة المسيح، وبين الكلمة الأولى ومعناها صالح. وكانوا يسمون المسيحيين CHRESTIANI أى الصالحين

(2) Schaff, vol. 1, pp. 366 - 371.

أخلى سبيلهما^(٣).

ومن بين الذين طردوا من روما بسبب منشور كلوديوس، أكيل و بريسكلا صديقا بولس ومضيفاه، اللذان يحتمل أن يكونا قد تنصرا قبل لقائهما مع بولس في كورنثوس (أع ١٨: ٢، رو ١٦: ٣).

لكن سرعان ما عاد الى روما اليهود، وكذلك اليهود المنتصرون تحيط بهم سحب من الشبهات، والى هذه الحقيقة يشير المؤرخ الوثني المعاصر تاسيتوس Tacitus فيقول أن الخرافة المسيحية التي أخذت لزمان (يقصد بواسطة مرسوم كلوديوس)، عادت الى الظهور ثانية تحت حكم نيرون (٥٤-٦٨م).

في أوائل حكم نيرون، كان المسيحيون في روما يؤلفون جماعة معروفة في كل العالم المسيحي، لهم عدد لا بأس به من المعلمين وأماكن متعددة لاجتماعاتهم^(٤) وشهد القديس بولس بذلك حينما قال عنهم في رسالته اليهم ان ايمانهم ينادى به في كل العالم، وأن طاعتهم ذاعت الى الجميع^(٥).

من أجل هذا، ولما لمدينة روما من أهمية في العالم وقتئذ، أنفذ إليها بولس رسالة من كورنثوس تعتبر أهم رسالة عقيدية له، وذلك تمهيدا لزيارته. وليس أدل على ذلك من أن بولس في رحلته الى روما سنة ٦١م، وجد مسيحيين في بوطيولي، الذين طلبوا اليه أن يمكث عندهم سبعة أيام. وعلى بعد ثلاثين أو أربعين ميلا من روما عند فورن أبيوس والثلاثة الحوانيت، استقبله أخوة رومانيون كانوا في لهفة أن يروا كاتب الرسالة العجيبة^(٦).

أسباب اضطهاد الدولة للمسيحيين

تمهيد

يمكن القول تجاوزا أن السياسة التي كانت تتبعها الدولة إزاء الديانات الأخرى هي التسامح الى حد ما.. كانت سياسة ضابطة لكنها ليست مانعة، كانت حرية الفكر لا يتعرض لها رقيب. وكانت الدولة تسمح للشعوب المغلوبة بالتعبد وفق ديانتها الخاصة، طالما لا تتدخل في مصالح الدولة، ولا تتعارض معها. لكن علينا أن نعرف أن مجلس الشيوخ الروماني وبعض الإباطرة، قد سمحوا بذلك، ليس احتراما لحرية العبادة، بل السياسة هي التي أملت عليهم ذلك. كانت الدولة تمنع الأشخاص الذين

(3) Schaff, vol. 2, p.45

(٤) أنظر رو ١٦: ٥-١٥

(٥) أع ١٣: ٢٨-١٥

(٦) رو ١٦: ٨، ١٩

يدينون بديانتها من الانضمام الى ديانات أخرى غير دياناتها. ولذلك فقد صدرت قوانين مشددة قاسية من وقت لآخر ضد اعتناق اليهودية^(١).

وكان اليهود يتمتعون بحماية خاصة منذ عهد يوليوس قيصر... وطالما كانت المسيحية معتبرة في نظر الرومان أنها شيعة يهودية، فقد نالت نصيبها من الكراهية والاحتقار، لكنها منحت الحماية القانونية لتلك الديانة القديمة. ولا شك أن هذا كان تدبيراً الهياً، إذ استطاعت أن تجد طريقها الى المدن الرئيسية في الامبراطورية قبل أن تنكشف حقيقتها. فمثلاً استطاع بولس أن يحمل الايمان المسيحي الى أطراف الامبراطورية بحكم كونه مواطناً رومانياً والوالي الروماني في كورنثوس رفض أن يتدخل في نشاطه التبشيري، على أساس أن المسألة داخلية وتتعلق باليهود ولا تختص بمحكمته (أع ١٨: ١٢-١٦).

وقد نظر الرومان الوثنيون - سياسة وكتاب - حتى حكم تراجان (٩٨-١١٧) الى المسيحية كخرافة دينية لا تستحق أن يلتفت اليها. لكن انتشارها السريع جعل من غير الممكن تجاهلها. وبمجرد أن عرف أنها ديانة جديدة تسعى للانتشار في العالم اعتبرت ديانة محرمة وغير مصرح بها. وأصبح التعبير المستمر الذي يوجه للمسيحي حسب رواية ترتليانوس "لا حق لك في الوجود"^(٢).

ويجب ألا تأخذنا الدهشة لهذا الموقف، لان الدولة الرومانية على الرغم من تسامحها، كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعبادة الوثنية، كما أوضحنا قبلاً. كان الامبراطور هو الكاهن الأعظم **Pontifex Moximus**، كما كان يعبد أيضاً. وقد وضع شيشرون **Cicero** خطيب الرومان الأشهر ومشرعهم، مبدأً في التشريع الروماني، بأن لا يسمح لأحد أن يعبد آلهة غريبة، ما لم يعترف بها بقانون عام^(٣). فإذا كان هذا هو رأى شخص مثقف مثل شيشرون، فان هذا يوضح لنا أهمية الديانة الوثنية في نظر الدولة الرومانية.

إن لقد كانت هناك عقبات، لا يمكن معها أن تتسامح الدولة مع المسيحية نجلها فيما يلي :

١ - المسيحية أتت بمفاهيم دينية جديدة عما درج عليه العالم القديم:

جاءت المسيحية بمفاهيم دينية جديدة عما الفه الناس في العالم القديم. فبدلاً من أن تكون الديانة مجرد مجموعة من العبادات يكررونها دون أن يروا فيها أى معنى، وسلسلة من الصيغ غير المفهومة في غالب الاحوال لتقادم لغتها، أصبحت

(1) Schaff, vol. 2, p. 42.

(2) Schaff, vol. 2, pp. 40, 41.

(3) Schaff, vol. 2, pp. 41, 42.

الديانة مجموعة تعاليم مفهومة وموضوعا عظيما معروضا للايمان. لم تعد ديانة خارجية، بل استقرت على الاخص فى فكر الإنسان. لم تعد مادة، بل أصبحت روحا.

لقد غيرت المسيحية طبيعة العبادة وشكلها. لم يعد الانسان يعطى الاله المأكل والمشرب، ولم تعد الصلاة صيغة لعزيمة سحرية، بل أصبحت عملا من أعمال الايمان، والتماسا بتواضع. أصبحت للروح صلة أخرى بالمعبود: حلت محبة الله محل الخوف من المعبود... هذه كلها مفاهيم خارجة عما ألفه الناس ودرجوا عليه فى جميع العبادات الوثنية.

ولم يعد هناك أجانب أو غرباء بالنسبة لاله المسيحيين لم يعد الاجنبى يندس المعبد أو ينجس القربان لمجرد حضوره، بل صار الهه المسيحيين وهو الها وأبا لكل من يؤمن. لم يعد الكهنوت وراثيا، لان الديانة لم تعد ملكا موروثا، لم تعد العبادة سرا محفوظا، ولم تعد الشعائر والصلوات والتعاليم مخبأة. بل على العكس، أصبح هناك تعليم دينى لم يكن يلقتن فحسب بل كان يعرض للجميع، وأكثر من هذا كانت المسيحية تبحث حتى عن أقل الناس اعتبارا.. عن المزدري وغير الموجود.

وفيما يختص بالشعوب، لم تعد الديانة الجديدة تأمر بالبغضاء. لم تعد تفرض على المواطن أن يبغض الاجنبى، بل على العكس جعلت من جوهرها أن تعلمه أن عليه نحو الاجنبى ونحو العدو واجبات من العطف. وهكذا خفضت المسيحية الحواجز بين الشعوب والأجناس... لم يعد الدين الجديد يفرق بين اليونانى اليهودى، البربرى والسكىثى، العبد والحر، بل علمت الشعوب أنهم انحدروا جميعا من أب واحد وأنه "فى كل أمة الذى يتقيه و يصنع البر مقبول عنده"^(٤) (أع. ١٠ : ٣٥).

٢- المسيحية جاءت كديانة مسكونية:

كانت المعبودات الوثنية معبودات محلية... كان لكل بلد ولكل اقليم معبوده أو معبوداته. وحتى الديانة اليهودية كانت ديانة قومية مقلدة تختص بشعب واحد... ولم تعرف اليهودية نظام التبشير وضم أعضاء جدد لها فى القرن السابق للميلاد. لكن المسيحية ظهرت - ليست كديانة قومية لاقليم معين أو لجنس خاص، بل كديانة عالمية - للعالم أجمع، للخليفة كلها، قال الرب يسوع "أذهبوا الى العالم أجمع واكرزوا بالانجيل للخليفة كلها" (مر ١٦: ١٥). وبعبارة أخرى فان المسيحية دعت العالم كله أن يتبع الها واحدا هو المسيح ليحكمه حسب ارادته. وبدأ المسيح كالمؤسس لامبراطورية روحية مسكونية، فى فترة كانت فيها الامبراطورية الرومانية فى أقوى فتراتها. فكانت المسيحية بذلك منافسا لا يحتمل للدولة. وهذا ما أثبتته التاريخ، فقد أظهر عهد قسطنطين أن التسامح المطلق مع المسيحية، هو الضربة

(٤) المدينة العتيقة ص ٥١٦ - ٥٢٣

القاضية على ديانة الدولة الوثنية^(٥).

٣- المسيحية نادت أنها الديانة الوحيدة الحقّة:

نادت المسيحية أنها الديانة الوحيدة الحقّة، وجذبت الى الايمان بها من كل جنس وشعب وطبقة وسن... جذبت من اليونان والرومان أعدادا أكبر بما لا يقاس مما استطاعت اليهودية أن تجذبها. ورفضت أن توافق على أى وضع للديانة الوثنية، أو أن تتحالف معها...

٤- المسيحية علمت بفصل الدين عن الدولة:

فما يختص بحكومة الدولة، يمكن القول بأن المسيحية قد بدلتها تبديلا جوهرياً. فى العصور القديمة لم تكن الديانة والدولة الا شيئاً واحداً. كان كل شعب يعبد الهه، وكان كل اله يحكم شعبه. كانت للديانة الامرة على الدولة، تعين لها رؤساءها بطريقة القرعة والاستخارات. وكانت الدولة تتدخل بدورها فى نطاق الضمير، وتعاقب كل من خرج على الشعائر، وعلى العبادة.

وبدلاً من ذلك علم يسوع المسيح أن سلطانه ليس من هذا العالم، لقد فصل الديانة عن الحكومة. وحيث أن الديانة لم تعد أرضية، فإنها لم تعد تختلط بأمر الارض أكثر من الحد الأدنى الذى كانت تستطيعه. لقد وضع الرب يسوع المبدأ المعروف "اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله". وتلك هى أول مرة يميز فيها بين الله والدولة بهذا الوضوح. كان قيصر فى تلك الفترة لا يزال هو الحبر الاعظم Pontifex Maximus، أى رئيس الدولة، والاداة الرئيسية للديانة الرومانية. كان هو حارس العقائد ومفسرها. كانت فى يديه العبادة والعقيدة. وكان شخصه ذاتا مقدسا والهيأ، وكانت تقدم له عبادات خاصة.

لقد علمت المسيحية أن الديانة لم تعد هى الدولة، وأن طاعة قيصر لم تعد هى بذاتها طاعة الله. بل أكثر من هذا علمت أنه ينبغى ان يطاع الله أكثر من الناس (أع ٥: ٢١). وفى هذا اصطدام بمبادئ الدولة. وهكذا فان رعايا الدولة المسيحيين رفضوا أن يقدموا طاعة فى الامور التى تتعارض وتعاليم دينهم.

لقد خرج من متناول الدولة نصف الانسان كاملاً. إذ أن المسيحية قد بشرت بأن الانسان لم يعد يتبع المجتمع إلا بجزء منه. ولم يعد ملكا له الا بجسمه وبمصالحه المادية. وأنه إذا كان رعية لطاغية فعليه الخضوع، وأن كان مواطناً لجمهورية فعليه أن يعطى حياته من أجلها، لكنه حر فيما يختص بروحه وليس ملكا لغير الله^(٦).

(٥) نفس المصدر ص ٥١٦-٥٢٣.

(٦) المدينة العتيقة ص ٥٢٠، ٥٢١.

٥- الحماس الشديد للروحانية بالمقارنة مع النشاط الاجتماعي:

رفض المسيحيون أن يشتركوا في احتفالات وثنية أو عبادة عامة. وكان عدم حماسهم للسياسة وعدم تقديرهم لكل الشئون المدنية والزمنية، بالمقارنة بالاهتمامات الروحية والابدية، والتصاقهم الشديد بعضهم ببعض، واجتماعاتهم المغلقة المستمرة، أثارت حولهم شبّهات عداوتهم للقيصرة والشعب الروماني، وتأمّرهم ضد الدولة. وتلك جريمة لا تغتفر.

والواقع أنه في ظل المسيحية تبدلت الاحساسات والأخلاق كما تبدلت السياسة. لم يعد الواجب الأسمى في اعطاء الانسان وقته وقواه وحياته للدولة. لم تعد السياسة والحرب هي كل شيء للانسان. لم تعد جميع الفضائل محصورة في الوطنية. لقد شعر الانسان أن عليه التزامات أخرى غير الحياة والموت من أجل الدولة والوطن. فقد ميزت المسيحية بين الفضائل الخاصة والفضائل العامة. خفضت هذه الأخيرة فرفضت الأولى. وضعت الله والذات البشرية فوق الوطن، والغريب فوق المواطن^(٧).

٦- اتهام المسيحيين بالإلحاد وفساد الخلق:

ومن ناحية أخرى فإن الشعب الروماني بأفكاره عن تعدد الآلهة، كره الذين يؤمنون باله واحد، واعتبرهم ملحدين وأعداء للآلهة، ووثقوا في شائعات الافتراء عن كل الرجاسات حتى الزنا بالمحارم وأكل لحوم البشر التي قيل أن المسيحيين يرتكبونها في اجتماعاتهم وأعيادهم. واعتبروا الكوارث العامة المتوالية في ذلك العصر (الزلازل، البراكين، فيضانات الأنهار، الأعاصير، القحط، المجاعات والأوبئة... الخ)، كقصاص عادل نتيجة غضب الآلهة لتهاون الرومان في عبادتها. وقد تميز القرنان الثاني والثالث الميلاديان، بحدوث كوارث طبيعية مستمرة ومتلاحقة في أنحاء الدولة.

٧- المنتفعون:

كانت الاضطهادات ضد المسيحيين، في بعض الاحيان والاماكن، يثيرها بعض المنتفعين من كهنة الأوثان والمشعوذين، والصناع والتجار، وغيرهم ممن كانوا يستفيدون من عبادة الأصنام. ومن أمثلة ذلك ديمتريوس الصانع في أفسس (أع ١٩: ٢٤-٢٩)، وموالى الجارية التي كان بها روح عرافة في فيلبى (أع ١٦: ١٦-٢٤). هؤلاء جميعا هيجوا الجماهير ضد الديانة الجديدة لتدخلها فيما يمس أرزاقهم... ويتضح ذلك من تقرير كتبه بليني الصغير Pliny حاكم ولاية بيثينية سنة ١٠٠م الى الامبراطور تراجان، أوضح فيه أن الاقبال على التقدّمات والقرايين التي تقدم للآلهة قد قل نتيجة ازدياد عدد المسيحيين.

(٧) نفس المصدر ص ٥٢١، ٥٢٢.

٨- الفلاسفة الوثنيون:

كان معظم فلاسفة العالم وقتذاك ضد المسيحية... كان فلاسفة ذلك الوقت غالبا رجالا بلا دين. كانوا أحكم من أن يعتقدوا في الآلهة الوثنية القديمة و لكن في نفس الوقت لم تكن لديهم الحكمة الكافية أن يتعرفوا على الاله الحقيقي. وهكذا وقف المسيحيون ضد فلسفة ذلك العصر وعقله بالاضافة الى قوة القانون...

هكذا تحالفت جميع القوى ضد المسيح وأتباعه، ووقفوا ضد الكنيسة و تمت كلمة النبي "لماذا ارتجت الأمم وفكرت الشعوب في الباطل.. قام ملوك الأرض و تأمر الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه...". فماذا كانت النتيجة؟ "الساكن في السموات يضحك. الرب يستهزى بهم، حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه. أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي...". نعم لقد أكمل الرب وعده "اسألني فأعطيك الامم ميراثا لك. وأقاصي الأرض ملكا لك" (مز ٢).

المسيحي في الدولة في عصور الاضطهاد

١- خطورة وضعه:

كان وضع الانسان المسيحي في الدولة الرومانية سواء كان حرا أم عبدا محفوفًا بالخطر دائما. كان من الصعب عليه مهما كان حذرا أن يفلت من أعدائه. فنفس اتجاهاته وحذره كانت تجلب عليه الاضطهاد. كان امتناعه عن بعض ممارسات الحياة الوثنية كفيلا بكشف أمره. وهكذا كان يقف ضد نفسه كل ساعة!!.

والعلامة ترتليانوس - الذي عاش وسط تلك الاضطهادات - في مقال له عن عبادة الأصنام، يقدم تصويرا أمينًا لكل المصاعب التي تقابل عابد الاله، الحقيقي وسط المجتمع الروماني. انه يشرح لنا كيف كانت حياة المسيحي كلها تكتنفها الوثنية من كل ناحية. وكيف كان لزاما على الانسان المؤمن أن يحطم الفخ الحديدى فى كل مرة اذا سلك باستقامة مع إلهه.

إن فقد كانت كل خطوة محفوفة بالمخاطر، كل عمل ينطوى على اعتراف بشجاعة، كل تحول عن العبادات الوثنية كان يسترعى الانتباه ويثير الكراهية بالنسبة للانسان المسيحي سواء كان حرا أم عبدا...

٢- حياته اليومية تكشفه وتعرضه للخطر:

كانت الحياة اليومية نفسها تكشف المسيحي وتعلن عنه حتى لو كان غير مندمج في المجتمع. ومن أمثلتها الممارسات الوثنية السابقة لايمانه وتوقفه عنها، كالأعياد الوثنية العديدة وامتناعه عن مشاركة مواطنيه فيها. فقد كان من عادة الوثنيين، أن يدعو بعضهم بعضا للتقدمات للآلهة. وكان الوثني المتنصر يصله

باستمرار مثل هذه الدعوات، لكنه كان مضطرا أن يرفضها بحسب ضميره المسيحى... وهنا يقول ترتليانوس "هل يجوز للمؤمن أن يشترك مع الوثنيين أنفسهم فى أمور من هذا النوع، سواء فى الملبس أو المأكل، أو فى أى مظهر آخر من مظاهر فرحهم؟ ان عبارة فرحا مع الفرحين وبكاء مع الباكين^(١). قالها الرسول عن الاخوة حينما كان يحثهم على الاتحاد فى رأى. أما عن أمثال هذه الأمور فقد قال: ليست شركة للنور مع الظلمة^(٢)، بين الحياة والموت، والا فنحن نبطل المكتوب: العالم يفرح ولكن أنتم تحزنون^(٣). فإذا فرحنا مع العالم، فهناك ما يدعو للخوف أننا نحزن معه أيضا. ولكن حينما يفرح العالم، فلنحزن نحن، وحينما يحزن العالم فيما بعد، سنفرح نحن".

ولم تقف الخطورة عند حد رفض المسيحى مشاركة أصدقائه القدامى مع الوثنيين فى تقدماتهم.. بل أن مجرد الكلام العادى المتبادل بين الناس، كان مدموغا بالصيغ والأقسام الوثنية المتعلقة بالآلهة.

كان على المسيحى أن يظهر انفصاله عن حوله فى كل الظروف حتى فى مجال الأحاديث العادية... وكان هذا من غير شك تحديا مستمرا واثارة للوثنيين... ومن هنا نشأت الأخطار المتلاحقة. وكان سيف الموت مسلطا دائما على رقاب المسيحيين^(٤).

٣- مشكلات الزواج المختلط:

ولم تكن العلاقات العائلية بمنأى عن الخطر. فالمرأة المسيحية كانت تحتل الكثير من زواجها، إذا كان مايزال وثنيا. إذ كيف يمكنها أن تؤدى واجباتها الدينية؟ كيف يمكنها الذهاب فى العشية الى اجتماع العبادة دون اثاره شبهاة؟ كيف يمكنها أن تظهر كرم الضيافة الى الغرباء من الاخوة فى الايمان؟ كيف تزور الشهداء فى سجونهم؟ أضف الى هذا أن الزوجة المسيحية كانت تواقفة أن تسمو بالرابطة الزوجية وتطهرها بعد أن انحط الزواج بواسطة المنكرات التى كان الوثنيون يأتونها. كانت طهارتها تضايق زوجها الوثنى وتهينه. وإذا أرادت الهرب من الفضيحة، فعليها أن تستعد للموت.

ويروى لنا يوستينوس الشهيد فى دفاعه الأول، حادثة حدثت فى أيامه. تكشف لنا كل آلام وأخطار الزواج المختلط^(٥). فى ذلك الوقت. امرأة كانت قبل زواجها وثنية، وأرادت بعد إيمانها أن تترك كل عار حياتها السابقة، فحاولت استمالة زوجها

(١) روم ١٢: ١٥.

(٢) ١ كو ٦: ١٤.

(٣) يو ١٦: ٢٠.

(4) Tert.: de Idolatria, 20.

(٥) أحد الطرفين مسيحى، والآخر وثنى.

الى ما أرادته، لكن إلحاحها المستمر لم يفلح. ولما لم تعد تحتل المعيشة في هذه العلاقة الدنسة، صممت - بعد أن اقتنعت بعدم جدوى التغيير - أن تنفصل عنه. واذ أراد الانتقام منها، أبلغ عنها أنها مسيحية فزج بها في السجن^(٦).

٤- امتناعه عن بعض الحرف:

كان على المسيحي الا يشتغل بكل فروع الحرف التي لها صلة بعبادة الأصنام مثل صناعة التماثيل الوثنية، وبيع الضحايا والقرابين التي تقدم في المعابد الوثنية... هذا، وكانت هذه الصناعات هي التي تدر وقتنذ، أرباحا أوفر من الحرف الأخرى... لم يكن هناك أى تردد في الامر. المهنة التي تتنافى مع المبادئ المسيحية كانت تترك في الحال. وتركها المفاجيء كان يعرض صاحبها للمحاكمة العامة^(٧).

٥- خطورة المناصب العامة:

وإذا كانت الحياة الخاصة لها أخطارها، فمما لا شك فيه أن الحياة العامة كانت أكثر خطرا. كان ضربا من المستحيل بالنسبة للمسيحي، أن يشغل منصبا عاما، كأن يكون حاكما أو ضابطا في الجيش. كان عليه في مثل هذه الوظائف أن يقسم أقساما وثنية معينة، وأن يقدم بخورا لصورة الإمبراطور.

هذا، فضلا عن الطقوس الدينية الكثيرة التي كانوا يمارسونها في حالة الحرب - قبل بدئها، وأثناء المعارك في ساحة القتال استجلابا لرضى الآلهة، وفي احتفالات النصر شكرا لموازرتها. وفي أثناء الحرب كانت الحياة المشتركة داخل الخيام تشكل مصاعب وخطورة بالنسبة للجندي المسيحي. كان بتصرفاته يجذب كل الأنظار اليه، الامر الذي ليس له معنى آخر سوى الموت. وعبثا كانت أمانته وشجاعته كجندي تشفع له وتنجيه من هذا الأخطار.

وقد أورد يوسابيوس في تاريخه قصة مارينوس الضابط الذي استشهد في قيصرية. اذ لما دعي للترقية الى رتبة قائد مائة، تقدم زميل له وطعن في ترقيته لأنه مسيحي. ولما سئل مارينوس عن ذلك اعترف بكل شجاعة. أعطاه القاضي ثلاث ساعات للتفكير. خرج من ساحة المحكمة وأخذ أسقف المدينة الى الكنيسة وخيره بين السيف والانجيل. وبدون أى تردد مد مارينوس يده وأخذ الانجيل. فقال له الأسقف، اثبت اذن. وأمام القاضي أظهر غيرة شديدة نحو الأيمان، فكان نصيبه الموت^(٨).

٦- المسيحي وعبادة الامبراطور:

(6) Justin Martyr: Apol. 1, p. 42.

(7) Tert.: de Idolatria 4:7.

(٨) يوسابيوس ٧: ١٥.

أما عن العبادات التي تقدم للامبراطور، فلم يكن للمسيحي أن يشترك فيها بأي حال من الأحوال. قال ترتليانوس " اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله - هذه هي وصية الانجيل. ماذا يحق لقيصر بناء على ذلك؟ هذه الكلمات قيلت عن مال الجزية. حينئذ سأل سيدنا أن يقدموا له قطعة من العملة، وسأل عن الصورة التي عليها. ولما أجابوه أن الصورة لقيصر، أردف، أعط أذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وبعبارة أخرى، ان صورة قيصر هي فوق العملة المالية. لذلك من حقه أن يطالب بالمال. وصورة الله هي في الانسان والله له على ذويه حق مساو. اعطوا اذن مالكم لقيصر وأنفسكم لله. لأنه لو كان كل شئ لقيصر فماذا سيبقى لله؟! "(9).

كان القيصر الروماني يطالب كل واحد من رعاياه، أن يخضع له خضوعا تاما بالفعل والارادة. وأية مقاومة كانت تعتبر عصيانا. ومجرد مناقشة موضوع الوهة الامبراطور وقداسة ذاته، كانت أسوأ انواع الكفر. وقصة استشهاد القديس اكاتيوس Acatius تقدم لنا صورة واضحة لمنظر طالما تكرر كثيرا في وقت الاستشهاد. لقد سأله الحاكم الذي حوكم أمامه هذا الشهيد قائلا "هل تحب أمراءنا كإنسان تعيش بموجب القانون الروماني؟" أجاب الشهيد "من ذا الذي يحب الامبراطور بصورة أفضل من المسيحيين؟! إننا نصلى عنه دائما أن يتمتع بحياة مديدة، وحكم عادل، وسلام في عهده، وان توفق جيوشه، وأن يوفق في العالم" قال الحاكم " هذا حسن. ولكن اليس من الأفضل أن تظهر طاعتك للامبراطور وتضحى له معنا اكراما له؟" أجاب الشهيد "انى اصلى لالهى لأجل الامبراطور. أما تقديم القرابين اكراما له فيجب ألا أقدمها أو أطالب بها. إذ كيف تعطى الكرامات الالهية للإنسان؟" كانت القرابين أقل ما يلزم، والقوانين الرومانية التي استند اليها الحاكم، حتمت على كل الرعية تقديم هذا الولاء(10).

٧- المسيحية أبشع الجرائم:

كانت المسيحية في نظر الدولة والحكام هي الجريمة الكبرى التي لا يعفى عنها... في نوفمبر سنة ٣٠٦ جاء القيصر مكسيمينوس الى قيصرية ليحتفل بعيد ميلاده، ورأى أن يقدم للناس جديدا. ولم يكن ذلك الجديد سوى القاء اثنين من المجرمين للوحوش الجائعة. كان أحدهما مسيحي يدعى أغاببوس (من فريجيا وقبض عليه في غزه). أما الثاني فكان عبدا قد قتل سيده. وما كادا يقدمان للامبراطور، حتى سارع الى العفو عن المجرم وأطلقه، فامتأ الملعب بأصوات الهتاف والاستحسان!! أما أغاببوس فبعد أن سار حول المدرج وسط سخرية النظارة، وسئل ما اذا كان يتخلى عن مسيحيته فيتمتع بحريته غير أنه رفض مناديا الجمع بأعلى صوته بأنه

(9) Tert.: de Idolatria.

(10) De Presensé, vol. 2, pp. 75, 76.

يقدم لغير جريمة سوى ايمانه بالاله الواحد العظيم، ولذا فهو يموت مبتهجا. ثم ألقى لأنثى دب كبيرة مزقته لكنها لم تقض عليه، فألقى في اليم في اليوم التالي^(١١).

٨- المسيحي والدهماء:

نستطيع القول انه في جميع الاضطهادات التي حلت بالمسيحيين كان للدهماء دور قيادي. وكثيرا ما كانوا هم البادئين باضطهاد المسيحيين وليس الحكام. كانوا يصدرن أوامر استبدادية، ويحصلون على ما يريدون من الحكام، أما لضعفهم، وأما لأن ذلك كان يشبع شهوة الانتقام من المسيحيين ولذا لا نتجاوز الحقيقة أن قلنا أن حكم الامبراطور الروماني كان هو حكم المستبدين والدهماء.

كان الدهماء في بعض الأحيان يسيطرون على الموقف، فيمنعون المسيحيين من استخدام الأسواق والحمامات العامة، بل كانوا يحرمون عليهم الظهور في أى مكان. كما حدث بالنسبة للمسيحيين في ليون وفيينا في زمان اضطهاد مرقس أوريليوس^(١٢). وكانوا أحيانا يقتحمون بيوت المسيحيين ويسطون عليها ويسلبونها فيأخذون نفائسها ويحطمون أو يحرقون أثاثاتها غير الثمينة، كما حدث في اضطهاد ديسيوس بالاسكندرية في زمان البابا ديونيسيوس الاسكندري^(١٣).

وكثيرا ما كانوا يتعقبونهم الى ساحات القضاء، ويتدخلون في سير التحقيق. وكانوا بمثابة الهيئة التنفيذية الوحيدة والعليا لادانة المسيحيين. كان لا يهدأ لهم بال حتى تصدر أحكام الموت ضدهم... وحتى بعد الموت كانوا يظهرون تشفيا في بقايا أجسادهم.

جاء في قصة استشهاد بوليكاربوس أسقف أزمير "ما كاد القاضى يجلس على كرسيه حتى ضجت قاعة القضاء بصياح الغضب من الغوغاء وضد البرىء.. وحدث أكثر من مرة أن الدهماء كانوا يرددون عبارة، ويصادق عليها الحاكم... وبعد ذلك رفع الحاضرون أصواتهم باتفاق واحد يطالبون بحرق بوليكاربوس حيا. وصدر الحكم بنفس الرغبة، ونفذ بمنتهى السرعة. وللحال شرعت الجماهير في جمع أخشاب وحطب من الحوانيت والحمامات الى الموضع المعين "...^(١٤).

وفي قصة شهداء ليون وفيينا نقرأ عن تدخل الدهماء في تعذيب وقتل هؤلاء المسيحيين، في كل مراحل تعذيبهم واستشهادهم. وحتى بعد موتهم، أحرقوا جثثهم وألقوا رمادها في نهر الرون، حتى يمحو بذلك أى أثر لهم على الأرض^(١٥).

(١١) يوسابيوس: شهداء فلسطين ف ٦.

(١٢) يوسابيوس ١: ٥.

(١٣) يوسابيوس ١: ٦: ٤ (رسالة البابا ديونيسيوس).

(١٤) يوسابيوس ٤: ١٥.

(١٥) يوسابيوس ٥: ١.

حلقات الاضطهاد العشر

اعتاد المؤرخون والكتاب المسيحيون منذ القرن الخامس الميلادي، تقدير الاضطهادات الأولى. التي شنتها الوثنية على الكنيسة المسيحية، بعشرة اضطهادات كبيرة تحت حكم الإباطرة:

(١) نيرون	(٢) دومتيان	(٣) تراجان
(٤) مرقس أوريليوس	(٥) سبتموس ساويرس	(٦) مكسيمينوس
(٧) ديسيوس	(٨) فالريان	(٩) أوريليان
(١٠) ديوكليتيانوس (دقديانوس)		

لكن هذا التقسيم عرفى اصطلاح عليه، وليس معناه أن الاضطهادات حدثت عشر مرات فقط. فإنها لم تتوقف أبدا. ما تكاد تتوقف في جهة، حتى تندلع نيرانها من جديد في جهة أخرى. وحتى أكثر الفترات هدوءا كان لها شهداؤها.

لقد حاول البعض أن يربط بين ضربات مصر العشر، وهذه الاضطهادات العشرة، باعتبار الأولى رمزا للثانية. وهم في محاولتهم فسروا العشرة قرون التي للوحش، الوارد ذكرها في سفر الرؤيا، الذي صنع حربا مع الخروف، على أنها هذه الحلقات العشر من الاضطهاد. ذلك الوحش الذي صنع حربا مع الخروف. وكانت تجلس عليه امرأة سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع^(١).

والآن نستعرض في عجالة ما حل بالكنيسة، في عهد هؤلاء الأباطرة، مع التركيز على الاضطهاد الأول والأضطهاد الاخير.

نيرون وحريق رومه واضطهاده للمسيحية

شخصية نيرون:

يعتبر الاضطهاد الذي أثاره نيرون على المسيحيين أول الاضطهادات الامبراطورية، الذي يرتبط به استشهاد عمودين عظيمين من أعمدة الكنيسة، هما الرسولان بطرس وبولس حسب التقليد الكنسى.

يبدأ هذا الاضطهاد سنة ٦٤م، وفي السنة العاشرة لحكم ذلك الطاغية بأمره

(١) أنظر رؤ ١٧: ٣، ٦، ١٢، ١٤.

وتحريضه. وهو نفس الامبراطور الذي تظلم لديه بولس الرسول - كمواطن روماني - من المحاكمة اليهودية وقال "الى قيصر أنا رافع دعواي"^(٢). على أن هذا الاضطهاد لم يكن اضطهادا دينيا خالصا، كالاضطهادات التي أثارها الأباطرة الذين أتوا بعد نيرون، لكنه بدأ ضمن كارثة عامة أتهم بها المسيحيون الأبرياء...

كانت السنوات الخمس الأولى من حكم نيرون (٥٤ - ٥٩)، فترة مجيدة بفضل القيادة الحكيمة لمعلمه سينكا Seneca لكن الفترة الباقية من حكمه حتى سنة ٦٨ كانت شنيعة. اننا نقرأ عن حياته بمشاعر تمتزج فيها السخرية من جنونه، والفرع من شره! كان العالم بالنسبة له رواية هزلية، ومأساة يقوم هو فيها بدور الممثل الأول. كان ذا شهوة جنونية لتهليل الجماهير. كان يضرب على القيثارة، وينشد أغانيه وقت العشاء، ويقود بنفسه عرباته في السيرك. كان يظهر فوق المسرح كمثل، وكان يرغم رجالا من ذوى المراتب العالية في الدولة، أن يمثلوا في تمثيلات الدراما، أو في أقدر وأقبح تمثيلات الخرافات والأساطير الاغريقية وأكثرها فحشاء.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أن المآسى الواقعية أعقبت المآسى التمثيلية. فأخذت جرائمه تتراكم الواحدة فوق الأخرى، حتى أصبح مضرب الأمثال في الشر. قتل أخاه بريتانيكوس Britannicus ، وأمه أجربينا Agrippina وزوجته أوكتافيا Octavia وبوبايا Poppaea ، وأستاذه ومعلمه سينكا، وعديدا من الشخصيات الرومانية البارزة. وأخيرا ختم هذه المأساة الطويلة بانتحاره وهو في سن الثانية والثلاثين من عمره. وبموته انقرضت أسرة يوليوس قيصر، وغدت الامبراطورية مغنما للقادة العسكريين أو المغامرين الناجحين...

ومن ثم، فقد قتل جمهرة المسيحيين الأبرياء بيد هذا الشيطان المتأنس نوع من الرياضة الممتعة بالنسبة له. أما بالنسبة للتاريخ فقد كان حريق روما هو المشهد الجهنمي الذي لم يشهد له مثيلا!!^(٣).

حريق روما:

بدأ الحريق ليلا، في ليلة ١٩/١٨ يوليه سنة ٦٤، في الأكشاك الخشبية في الطرف الجنوبي الشرقي للسيرك الكبير، قرب تل بلاتين Palatine Hill. وسرعان ما امتدت السنة النيران بواسطة الريح، وظلت تلتهم كل ما يصادفها في طريقها لمدة ستة أيام وسبع ليال. وذلك بعد أن فشل الجنود ورجال الاطفاء في أخمادها أو حصرها... ثم ما لبثت أن اندلعت ثانية في جزء ثان من المدينة قرب ساحة مارس Mars. وفي خلال ثلاثة أيام أخرى دمرت قسمين آخرين من المدينة...

(٢) أع ٢٥: ١١.

(3) Schaff, vol. 1, p. 378.

كانت الكارثة فادحة ولا تقدر، إذ لم يسلم من الحريق المدمر سوى أربعة أقسام من الأربعة عشر قسما، التي كانت تنقسم إليها المدينة العظيمة وأتى الحريق على كثير من الآثار والابنية والمعابد التي ترجع الى عصور الملكية والجمهورية والامبراطورية. وتحولت اثنان آثار الفن الاغريقي - التي ظلت تجمع لعدة قرون من الزمان - الى تراب ورماد. كما التهمت السنة النيران كثيرا من الناس والبهائم... وهكذا تحولت المدينة الأولى في العالم الى جبانة عظيمة تضم مليوناً من الناجين ينوحون الخسارات التي لا تعوض⁽⁴⁾...

من هو الفاعل؟

أما أسباب هذا الحريق الجبار، فلم يعط التاريخ فيها حكما قاطعا، لكن كل الشائعات التي تردت والشهادات وكتابات المؤرخين القدامى تشير بأصبعها الى نيرون على أنه الفاعل، وانه أراد أن يستمتع بمنظر طروادة أخرى تحترق، ويشبع طموحه وجنونه في إعادة بناء روما على نسق أفخم ويدعوها نيروبوليس **Neropolis** أي مدينة نيرون. وحينما اندلعت السنة النيران كان هو على شاطئ البحر في أنتيوم **Antium** مسقط رأسه. ولم يعد الا بعد أن امتدت النيران الى قصره الخاص.

وحتى يبعد الشبهة عن نفسه في جريمة الحريق، وفي الوقت نفسه يستمتع بقسوة شيطانية جديدة، ألصق التهمة بالمسيحيين المنبوذين، الذين أضحوا في تلك الآونة - خاصة بعد خدمة بولس الناجحة في روما - مميزين عن اليهود. كان المسيحيون بلا ريب يحتقرون الآلهة الرومانية، واتهموا زورا بارتكاب جرائم سرية.

كانت الشرطة والناس - تحت سيطرة الفرع الناشئ من الكارثة المروعة - على استعداد لأن يصدقوا أشر الافتراءات. ومن ثم طالبوا بالضحايا. و ماذا كان يمكن أن ننتظره من الجموع الجاهلة، اذا كان بعض الرومان المثقفين من أمثال تاسيتوس وسيوتونيوس وبليني وصموا المسيحية بالعار، كخرافة مفسدة دنيئة. لقد نظروا اليها على انها أشر من اليهودية. ويقول تاسيتوس المؤرخ المعاصر - بعد أن ذكر خبر القبض على بعض المسيحيين، واعترافهم بايمانهم - "ولم يستذنبوا كثيرا بتهمة الحريق، بقدر استذناهم بتهمة كراهية الجنس البشرى"⁽⁵⁾.

وموضوع اتهام المسيحيين الأبرياء بحرق روما، يعيد الى أذهاننا حادثا مماثلا حدث في روما أيضا، لكن قبل حريقها بسنين طويلة. واتهم فيه قوم أبرياء، ليس لثبوت التهمة ضدهم، بل لمجرد اعتبارهم أعداء، على نحو ما فعل بالمسيحيين...

(4) Schaff, vol. 1, pp. 379,380.

(5) Schaff, vol. 1, pp. 380,381.

كاد معبد فستا بروما أن يحترق يوما، باندلاع نار شبت في المنازل المجاورة، فروع روما إذ شعرت أن مستقبلها في خطر. فلما انقضى الخطر حث مجلس الشيوخ، القنصل على البحث عن مدبري الحريق. وسرعان ما اتهم القنصل بعض أهالي كابوا Capoue الذين كانوا وقتئذ في روما، لأنه كان لديه أى دليل على ادانتهم، بل لأنه قدر التقدير الآتى "هدد حريق معبدنا، وليس من الممكن أن توقد هذا الحريق الذى كاد يؤدي الى تحطيم عظمتنا ووقف مصائرنا، الا يد أشد أعدائنا قسوة. وحيث انه ليس لنا أعداء الد من أهالي كابوا - تلك المدينة التى هى فى الوقت الحاضر حليفة هاتيبال عدونا الأول، والتى تتطلع الى أن تكون فى مكاننا عاصمة لايطاليا - إذن فهوؤلاء الناس هم الذين أرادوا أن يقضوا على معبد فستا"^(٦)... ويبدو أن هذه هى الطريقة التى ألفها ودرج عليها حكام روما!!

مشاهد الوحشية فى تعذيب المسيحيين:

ترتب على تهمة الحريق - مؤيدة بتهمة كراهية الجنس البشرى - بدء كرنفال من الدماء لم تشهد له روما الوثنية مثيلا. حتى أن البعض قالوا أن ما حدث كان اجابة قوات الجحيم لحركة التبشير المثمرة، التى قام بها الرسولان بولس وبطرس، والتى زعزت أعماق الوثنية فى أهم معاقلها.

حكم بالموت على أعداد ضخمة من المسيحيين بأبشع الوسائل. صلب بعضهم امعانا فى السخرية بعقوبة المسيح. ولف البعض الآخر فى جلود الحيوانات الضارية، والقوا للكلاب المسعورة فى مسرح الألعاب الرياضية. وبلغت المأساة الشيطانية ذروتها ليلا، فى الحدائق الامبراطورية، عندما أشعلت النار فى المسيحيين والمسيحيات، بعد أن دهنوا بالقار أو الزيت أو الراتنج (صمغ الصنوبر)، وسمروا فى أعمدة الصنوبر، يضيئون كالمشاعل لتسلية الجماهير بينما شوهد نيرون فى ثياب غريبة الشكل مرسوم عليها جواد سباق متباهيا بفته فى عربته^(٧).

كان حرق الانسان حيا هى عقوبة من يحرق عمدا. لكن قسوة ووحشية هذا الامبراطور المعتوه، أملت عليه أن يجعلهم وسيلة للانارة! على أن ما أنزلة نيرون من ضروب الوحشية بالمسيحيين لم تكن - من الناحية الرسمية الشكلية - عقابا على ديانتهم، بل على التكتل الجماعى فى احراق روما عمدا!!!

ان ما أوردناه عن هذا الموضوع استقيناه من شهادة تاسيتوس أكبر المؤرخين الوثنيين المعاصرين الذى رسم صورة كاملة لدقائق حريق روما، وكان له من العمر وقتئذ ثمان سنوات، وكتب تاريخه بعد ذلك بخمسين سنة. يضاف الى

(6) Fustel de Coulanges : La Cité Antique p. 196; Après Tite -Live, 26:27: Conditum in penetrali fatale pignus romani imperii.

(7) Documents of the Christian Church, p. 2, (Tacitus Annales, 15:44), - Schaff, vol. 1, pp. 381, 382.

شهادة تاسيتوس، ما سجله المؤرخ سيوتونيوس، الذى كتب تاريخه حوالى سنة ١٢٠م. وما كتبه كتاب مسيحيون من أمثال القديس اكليمنضس الرومانى فى أواخر القرن الأول الميلادى، والعلامة ترلتيانوس فى القرن الثانى^(٨)...

أهمية اضطهاد نيرون ونتائج:

كان هذا العمل بمثابة تعبئة لشعور جماهير الوثنيين ضد المسيحيين. كان هو الشرارة الأولى التى اضرت نيران سلسلة حروب طويلة ضد الديانة الجديدة. ومن هول ما ذاقه المسيحيون على يدى هذا الطاغية، اعتقدوا أنه سيظهر ثانية كالمسيح الدجال الذى أشار اليه العهد الجديد.

تمتع نيرون بنوع من الشعبية بين السوقة والدهماء... هؤلاء الدهماء اعجبوا بشبابه وجماله الجسدى وشروره، التى ربما حسبوها نوع من البطولة كالتى ذخرت بها الأساطير القديمة. ومن هنا فقد راجت شائعة بين الوثنيين عقب انتحاره، مؤداها انه لم يمت، لكنه هرب الى البارثين **Parthians**، وأنه سيعود الى روما على رأس جيش كبير ويبيدها. وقام بالفعل ثلاثة مدعين كل منهم يحمل اسم هذا الطاغية، واستغلوا هذا الاعتقاد السائد، ووجدوا من ينضم اليهم، وكان ذلك فى حكم الأباطرة أوتو، وتيطس، ودومتيان. ومما يؤثر عن دومتيان أنه كان يرتعد هلعاً من اسم نيرون!!

أما بين المسيحيين، فقد اخذت شائعة المجئ الثانى لنيرون صورة مغايرة ويذكر لكتانتىوس **Lactantius** فى كتابه "موت المضطهدين" عبارة قالتها سبلة الحكيمة مؤداها أنه كما أن نيرون كان هو أول المضطهدين، فسيكون أيضاً هو الأخير، ويسبق مجئ المسيح الدجال.

ويذكر أغسطينوس فى كتابه "مدينة الله" أنه فى زمانه كان ما يزال هناك رأيان سائدين بخصوص نيرون. أحدهما رأى المسيحيين، ومؤداه ان نيرون سيبعث من الموت كضد للمسيح، والآخر رأى الوثنيين وخلصته أن نيرون لم يمت لكنه مخفى. وسيحيا الى أن يكشف ويعود الى مملكته... وقد رفض أغسطينوس، بطبيعة الحال، الرأيين. ولعل مصدر الرأى الذى شاع بين المسيحيين هو التفسير الخاطئ الخاص بما جاء فى (رؤ ١٧: ٨) عن الوحش "الوحش الذى رأيت، كان وليس الآن وهو عتيد أن يصعد من الهاوية ويمضى الى الهلاك، وسيتعجب الساكنون على الأرض... حينما يرون الوحش انه كان وليس الآن مع انه كائن"، بالمقابلة مع ما ورد فى (رؤ ١٣: ٣) "ورأيت واحدا من رؤوسه (الوحش) كأنه مذبح للموت وجرحه المميت قد شفى، وتعجبت كل الأرض وراء الوحش"...

(8) Schaff, vol. 1, pp. 387 - 389.

لكن نسي هؤلاء أن هذه الأقوال قيلت عن الوحش - وان صح هذا التفسير - فهي ترمز الى الامبراطورية الرومانية، بينما ترمز الرؤوس التي لذلك الوحش الى الأباطرة^(٩).

وكان في مقدمة من استشهدوا في الاضطهاد الذي أثاره هذا الطاغية، الرسولان بطرس وبولس. صلب الأول منكمس الرأس، وقطعت هامة الثاني كموطن روماني^(١٠).

من نيرون إلى ديوكلتيانوس

(٢) دومتيان^(١١) Domitian (٨١-٩٦)

طاغية مرتاب متكبر، كان يدعو ذاته "ربا والها" اعتبر اعتناق المسيحية جريمة ضد الدولة. حكم على كثير من المسيحيين بالموت، ومن بينهم أقرب أقربائه، القنصل فلافيوس كليمنس **Flavius Clemens** كما نفى البعض الآخر، وصادر ممتلكاتهم كما حدث مع دوميتلا **Domitilla** زوجة كليمنس.

ويذكر التقليد الكنسي ويؤكد القديسان إيريناوس من الجيل الثاني وإيرونيوموس والمؤرخ الكنسي يوسابيوس من الجيل الرابع أن هذا الامبراطور أثار اضطهادا على كنائس آسيا الصغرى، الأمر الذي أشير اليه في سفر الرؤيا في الكلام الموجه الى ملاك كنيسة سميرنا "أنا أعرف أعمالك وضيقك وفقرك... لا تخف البتة مما أنت عتيد أن تتألم به. هوذا ابليس مزعم أن يلقي بعضا منكم في السجن لكي تجربوا ويكون لكم ضيق عشرة أيام^(١٢)، وفي الكلام الموجه الى ملاك كنيسة برغامس "أنا عارف أعمالك وأين تسكن حيث كرسى الشيطان وأنت متمسك باسمي ولم تنكر ايماني حتى في الأيام التي فيها كان أنتيباس شهيدى الأمين الذي قتل عندكم حيث الشيطان يسكن"^(١٣).

ويؤكد التقليد الكنسي، والقديسان إيريناوس وإيرونيوموس والمؤرخ يوسابيوس، أن دومتيان هو الذي أمر بالقاء القديس يوحنا الانجيلي في خلقين زيت مغلى في روما، ثم عاد ونفاه الى جزيرة بطمس. كما استشهد ابان عهده انسيوموس وديونييسيوس الاريباغى وكثيرون غيرهم.

(9) Schaff, vol. 1, pp. 389, 390.

(١٠) أنظر: رسالة القديس كليمنضس الروماني الى أهل كورنثوس فصل ٩٥ عن 11 Document of the Christian Church, p.

(11) Schaff, vol. 2, pp. 44, 45.

(١٢) رؤ ٢: ٨-١٠.

(١٣) رؤ ٢: ١٢، ١٣.

(٣) تراجان (١٤) Trajan (٩٨-١١٧)

ترجع أهمية تراجان بالنسبة لموضوعنا الى أنه:

(١) أول امبراطور يعلن أن المسيحية ديانة محرمة.

(٢) أحيا التشريعات الصارمة ضد جميع الهيئات والجماعات السرية. وقد اعتبرت اجتماعات المسيحيين الدينية من هذا النوع.

وقد ظلت الدولة تسير في تعاملها مع رعاياها المسيحيين، على هدى هذه القوانين التي استنها تراجان لأكثر من قرن من الزمان.

وتظهر روحه العدائية تجاه المسيحيين من رسالة له ردا على رسالة أرسلها له بليني Pliny حاكم ولاية بيثينية بآسيا الصغرى بين سنتي (١٠٩-١١١) (١٥) كان بليني هذا يرى المسيحية خرافة دينية متطرفة، وبالجهد يتحدث عن اقبال الجماهير عليها. لقد أرسل للامبراطور تراجان يخبره بأن هذه الخرافة تزداد انتشارا باستمرار - ليس فقط في مدن آسيا الصغرى بل حتى في قراها أيضا. وأنه أصبح لها سلطان على الناس من كل سن ومركز وجنس. حتى أن المعابد الوثنية هجرت، وكسدت تجارة الاشياء التي تقدم قرابين وتقدمات للآلهة. ولكي يضع حدا لهذا الانتشار المضطرد، حكم على كثيرين من المسيحيين بالموت، وأرسل بعضا آخر ممن كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية الى المحكمة الامبراطورية بروما. لكنه سأل الامبراطور مزيدا من التعليمات بخصوص طريقة معاملة المسيحيين وهل يراعى كبر السن، أم يعتبر مجرد حمل اسم "مسيحي" جريمة.

وقد أجاب تراجان على هذه الاستفسارات برسالة جاء فيها "لقد سلكت يا صديقي الطريق السوي فيما يختص بالمسيحيين، إذ لا يمكن وضع قاعدة عامة تطبق على كل الحالات في هذا الصدد. لا ينبغي السعي في طلبهم، لكن إذا اشتكى عليهم، ووجدوا مذنبين، فلا بد من معاقبتهم. ومع ذلك، فإذا أنكر أحد أنه مسيحي، وبرهن على ذلك عمليا بالتضحية لآلهتنا، فليصفح عنه بناء على توبته...".

وبناء على قرار الدولة هذا، تعرض المسيحيون لاضطهادات عنيفة. وقد أصاب سوريا وفلسطين ومصر على وجه الخصوص الكثير منها. فلقد وجه اليهود المتعصبون اتهاما لسمعان أسقف أورشليم، وحكم عليه بالموت صلبا سنة ١٠٧، وهو في سن المائة والعشرين. وفي نفس هذه السنة تقريبا حكم على القديس أغناطيوس أسقف أنطاكية بالموت، وأرسل الى روما، وألقى للوحوش الضاربة في

(14) Schaff, vol. 2, pp. 46-49.

(15) Documents of the Christian Church, pp. 3 - 6.

الكلوسيوم^(١٦).

(٤) مرقس اوريليوس^(١٧) Marcus Aurelius (١٦١-١٨٠)

كان هذا الامبراطور كفيلسوف على عرش، اذ كان مثقفا ثقافة عالية. لكن هذه الثقافه العاليه لم تستطع أن تحوله عن كراهيته للمسيحية والمسيحيين، اذ كان ينظر الى المسيحية كخرافة سخيفة متعصبه. وعلى الرغم من أن المدافعين المسيحيين من أمثال ميليتون وملتياوس واثيناغوراس، اغرقوه بسيل من دفاعاتهم عن المسيحيين المضطهدين، وعن المسيحية ذاتها، محاولين أن يردوا الاتهامات والافتراءات التي حاول أعداؤها أن يلصقوها بها. نقول أنه على الرغم من كل ذلك، فانه لم يعط أذنا صاغية لدفاعهم، بل يبدو أنه لم يكلف نفسه مشقة قراءتها، أو حتى مجرد النظر اليه.

آمن بالفلسفة الرواقية، وكان هو نفسه فيلسوفا، لكن فلسفته كانت مغايرة لفلسفة المسيحية. وعلى الرغم من أن الفلسفة الرواقية علمت الناس تحمل الالم والموت دون خوف، لكنه كان يأخذ على المسيحيين الهدوء الذي يلقون به الموت، ويفرق بينه وبين الشجاعة الحققة التي تعلم بها الفلسفة الرواقية. فهو يرى أن تلك شجاعة معقولة كريمة، أما شجاعة المسيحيين فهي شجاعة متكلفة تمثيلية!

أضف الى هذا اعتباره العقيدة المسيحية الخاصة بخلود النفس، بما يترتب عليها من نتائج أدبية، أمرا يهدد رفاهية الدولة. فأصدر مرسوما يهدد فيه بالنفى كل من يحاول تعليم الناس الخوف من الله. وكان هذا القانون موجها دون شك الى المسيحيين.

كان عهده حقبة عاصفة عنيفة في تاريخ الكنيسة. ويرجع السبب في ذلك الى أن الكثير من أقاليم الامبراطورية تعرضت في تلك الفترة الى عدد من كوارث الطبيعة: فيضان مدمر لنهر التيبير، زلزال، ووباء الطاعون الذي انتشر من أثيوبيا الى غاليا (فرنسا الحالية)...

وكانت النتيجة أن اتحدت الحكومة مع الشعب ضد المسيحيين أعداء الآلهة، الذين بسببهم حدثت تلك الكوارث، وشنوا اضطهادات دامية ضدهم حتى أن الفيلسوف الوثني كلسوس Celsus - الذي هاجم المسيحية بعنف في كتاب فنده ورد عليه فيما بعد الفيلسوف المسيحي أوريجينوس - أعلن فرحه بهذا الاضطهاد، لان الشيطان (المسيحيين) أبعد عن البر والبحر...! وعلى أية الحالات فان كل هذه الاحداث انما تشير الى أن الديانة الجديدة الصاعدة كانت تحوز اهتماما متزايدا ومستمر في كل انحاء الامبراطورية.

(١٦) مدرج كبير مستدير، أقامة أباطرة الرومان على مساحة كبيرة، تتسع لعشرات الآلاف من المتفرجين، وتتوسطه ساحة كبيرة يلقى فيها أسرى الحروب، لمصارعة الوحوش.

(17) Schaff, vol. 2, pp. 53-57.

وتحت حكم هذا الامبراطور - وفى سنة ١٧٧ تعرضت كنائس ليون وفينا بجنوبى فرنسا لتجربة شديدة. لقد أجبر العبيد الوثنيون على اتهام سادتهم المسيحيين بارتكاب رذائل قبيحة، كانت محرمة فى الدولة بموجب قوانين. وكان القصد من ذلك تبرير العذابات الاليمة التى استهدف لها المسيحيون. لكن أولئك المسيحيين أظهروا ايمانا عجيبا وثباتا مذهلا.

ونذكر من مشاهير ضحايا هذا الاضطهاد الذى حدث فى غاليا (فرنسا)، الاسقف بوثينوس **Pothinus** ، وكان شيخا فى سن التسعين، والعذراء بلندينا **Blandina** التى وهى أمة (عبدة)، أظهرت قوة احتمال تفوق قدرة البشر. وأخيرا القيت لوحش صار أفترسها، والصبي بونتيكوس **Ponticus** ، الذى احتمل قساوة ووحشية، ولم يتجاوز عمره خمس عشرة سنة... أما جثث الضحايا التى ملأت الطرقات فقد أحرقتها الدهماء وذروا رمادها فى نهر الرون، حتى لا تتنجس الارض من بقايا أعداء الآلهة.

ومن أشهر من استشهدوا تحت حكم هذا الامبراطور، الفيلسوف والمدافع المسيحى يوستينوس الذى استشهد فى روما بين سنتى ١٦٥ و ١٦٦، وسنعود للكلام عنه.

(٥) سبتميوس ساويرس ^(١٨) **Septimius Severus** (١٩٣-٢١١)

لم يكن نظير سلفه مرقس أوريليوس يضرر مقتا للمسيحيين لاسباب فكرية، بل كان بلاطه يضم بعض المسيحيين، ومنهم طبيبه الخاص بروكولس **Proculus** تزوج من جوليا دومنا **Julia Domna** ابنة كبير كهنة أفسس الوثنى، فكان ذلك سببا فى عرض الديانات الشرقية على الامبراطور بصورة اكبر... لكن على الرغم من كل ذلك فقد أثرت اضطهادات اقليمية كثيرة فى أواخر القرن الثانى. وقد أشار الى ذلك اكليمنضس الاسكندرى بقوله "كثير من الشهداء يحرقون يوميا أو يعدمون على مشهد منا".

فى سنة ٢٠٢ أصدر مرسوما يقضى بمنع المسيحيين من تبشير غيرهم، وضم منتصرين جدد. وبسبب هذا المرسوم، حلت أشد الاضطهادات بالمؤمنين فى مصر وشمالى أفريقيا. حيث قدمت لنا كنائس تلك الاقاليم، أئنع زهورها على مذبح الاستشهاد.

نذكر ممن استشهدوا فى الاسكندرية ليونيدس والد العلامة أوريجينوس وبوطامينا العذراء العفيفة، وباسيليوس الجندى. ثم بربيتوا وفيليسيتاس (سعدى)، اللتان استشهدتا فى قرطاجنة بشمالى أفريقيا. ومما يلفت النظر أن عدد غير قليل من شهداء هذا العهد كانوا من بين الموعوظين أو المعمدين حديثا. ولعل لتلك الظاهرة علاقة بمرسوم ساويرس الذى قضى بمنع التبشير.

(18) Schaff, vol. 2, pp. 57, 58.

(٦) مكسيمينوس التراقي^(١٩) Maximinus The Thracian (٢٣٥-٢٣٨)

اضطهد المسيحيين منذ بادئ عهده. وقيل كتعليل، انه فعل ذلك لا لشيء سوى معارضته لسياسة سلفه اسكندر ساويرس (٢٢٢-٢٣٥)، الذي قيل انه كان متسامحا مع المسيحيين، حتى انه وضع صورة المسيح في قصره مع صور الآلهة الوثنية المحببة، وكبار الإباطرة الرومان، واتخذ لنفسه شعارا، كلمات المسيح "كما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهم" نقشها على حوائط قصره والتماثيل العامة...

وفي اضطهاده للمسيحيين، مكن الشعب من أظهر غضبه نحو أعداء الآلهة. وقد ساعد على ذلك، حدوث بعض الزلازل. اتخذ اجراء عنيفا ضد رجال الدين المسيحي. لكن لا يمكن الجزم هل كانت أوامره تقضى بقتلهم جميعا، أم أن القتل كان قاصرا على الاساقفة وحدهم. وعلى أية الحالات فقد كان هذا الامبراطور في معاملته للمسيحيين بربريا قاسيا.

(٧) ديسيوس^(٢٠) Decius (٢٤٩-٢٥١)

كان امبراطورا نشيطا، استيقظت في شخصه ثانياة الروح الرومانية القديمة، فصمم على استئصال شأفة المسيحية كعقيدة دينية مستحدثة. أصدر مرسوما سنة ٢٥٠، وجهه لجميع حكام الاقاليم في أنحاء الامبراطورية، يحتم عليهم فيه ضرورة اعادة ديانة الدولة الوثنية مهما كلفهم الامر. كان هذا المرسوم نذيرا بالاضطهاد الكبير العام الذي فاق في وحشيته كل ما سبقه.

ووجه الاهمية في مرسوم ديسيوس هذا، أن ما ترتب عليه من اضطهاد، يعتبر بحق أول اضطهاد شامل، عم كل أقاليم الامبراطورية، بعد أن كان الاضطهاد محليا متقطعا. وبالتالي فقد قدم عددا أكبر من الشهداء.

وفي سبيل تنفيذ هذا المرسوم، استخدم حكام الاقاليم كل ألوان العسف والاضطهاد والقسوة لحمل المسيحيين على الارتداد عن دينهم. وكان من نتيجة ذلك أن ضعف كثير من المسيحيين. البعض ضحى للأوثان، والبعض تمكنوا بطريقة أو بأخرى من الحصول على شهادات مزورة من الحكام، تفيد ما يثبت أنهم فعلوا ذلك، وقد حصلوا على هذه الشهادات المزورة اما بواسطة المال أو بواسطة أصدقاء وثنيين... هذا بينما اندفع آلاف من المسيحيين، في غيرة عجيبة وشجاعة نادرة مذهلة، اما للسجون أو لنيل اكليل الشهادة.

(19) Schaff, vol. 2, p. 59.

(20) Schaff, vol. pp. 60, 61.

وقد عثروا فى الفيوم سنة ١٨٩٣ على إحدى هذه الشهادات **Libelli** (٢١) وصورتها كالآتى :

"الى مأمورى الذبائح فى قرية جزيرة اسكندر

"من أوريليوس ديوجنيس **Aurelius Diogenes** بن ستابوس **Satabus** من قرية جزيرة اسكندر، سن ٧٢، بندبة على حاجبه الايمن.

"لقد كنت أضحي دائما للآلهة، وفعلت ذلك الآن فى حضوركم طبقا لنص المرسوم.

"لقد قمت بالتضحية وسكبت السكائب، وذقت الذبائح. والتمس أن تشهدوا بذلك والسلام"

مقدمه: أوريليوس ديوجنيس

"أشهد أنى رأيتہ يقدم ذبيحة".

أوريليوس سيرس **Aurelius Syrus**

"تحريرا فى اليوم الثانى من أبيب (٢٦ يونية سنة ٢٥٠) فى السنة الاولى للامبراطور ديسيوس".

لقد كتب المعترفون فى روما من سجنهم، الى اخوتهم فى أفريقيا، ابان هذا الاضطهاد يقولون "ماذا يمكن أن يكون أكثر مجدا؟! هل يمكن أن تهب نعمة الله للانسان نصيبا أكثر مجدا وبركة، من أن يعترف بالرب الاله وسط العذابات، وفى مواجهة الموت ذاته. يعترف بالمسيح ابن الله، وأن يصبح شريكا فى الآلام مع المسيح وباسمه؟! ومع أننا لم نسفك دماءنا بعد، لكننا مستعدون أن نفعل ذلك. صل عنا اذن ايها العزيز كبريانوس (أسقف قرطاجنة) لكى الرب القائد الاعظم يقوى كل واحد منا دوما اكثر، ويقتادنا أخيرا الى ساحة الاستشهاد كجنود أمناء متسلحين بالاسلحة المقدسة، التى لا يمكن أن تقهر".

كانت السلطات أكثر قسوة على وجة الخصوص مع رؤساء الكنائس وخدامها. ومن بين الذين استشهدوا، ابان هذا الاضطهاد، القديس مرقوريوس المعروف بأبى السيفين، وقابيانوس الرومانى، وبابيلاس الانطاكى، واسكندر الاورشليمى. وبينما قدم هؤلاء انفسهم فى شجاعة، نجد البعض الآخر قد اختبأ... البعض نتيجة خوف والبعض الآخر - لكى باختفائهم يخففوا من حدة غضب الوثنيين على شعبهم، ولكى

(21) Documents of the Christian Church, p. 18.

باختفائهم وبقائهم على قيد الحياة يفيدوا كنائسهم، اذ كانوا يوالون الاتصال بهم برسائل من مخابئهم يشجعونهم ويثبتونهم.

ومن هذا النوع الاخير القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة الذى قال فى هذا الصدد موضحا موقفه "لقد أمرنا الرب أننا فى زمان الاضطهاد أما أن نسلم أنفسنا وأما أن نهرب. لقد علم هو بذلك ومارس الامر بنفسه. فطالما أن أكليل الشهادة نناله بمعونة الله، ولا يمكن أن نناله قبل الساعة المحددة، فالذى يختبئ الى زمان، ويظل أميناً للمسيح، لا يكون قد أنكر الأيمان، بل يثبت وقته.

(٨) فالريان (٢٢) Valerian (٢٥٣-٢٦٠)

بدأ حكمه لطيفا متسامحا مع المسيحيين، بل كان كثيرون منهم فى قصره. لكن سرعان ما قلب لهم ظهر المجن سنة ٢٥٧^(٢٣)... وكنتيجة لمعرفة أن العنف والبطش وسفك الدماء لم تغلح فى ايقاف تيار المسيحية، فقد حاول تجربة سلاح جديد، بنفى خدامها من الاكليروس والعلمانيين، ومصادرة أملاكهم، وتحريم الاجتماعات الدينية، وأن يحال بين المسيحيين وزيارة المقابر. واذا أثبتت هذه الاجراءات الجديدة عدم جدواها، جدد عقوبة الموت على المسيحيين.

فأرسل الى مجلس الشيوخ الرومانى أمرا يقضى بأن رجال الاكليروس (اساقفة وقساوسة وشمامسة) ينبغى أن يعدموا فورا. ويجرد المسيحيون من أعضاء مجلس الشيوخ والرجال البارزين والفرسان الرومان، من ألقابهم وممتلكاتهم. فإذا أصروا على مسيحتيتهم بعد ذلك تبتز رؤوسهم. أما النساء المتزوجات فيجردن من ممتلكاتهن وينفن. وأما صغار المواطنين ممن يعترفون بمسيحتيتهم فمصيرهم أن يقيدوا بالسلاسل، ويرسلوا للعمل فى ضياع الامبراطور^(٢٤).

ومن أشهر شهداء ذلك العهد سكستوس الثانى Sixtus أسقف روما، وكبريانوس أسقف قرطاجنة.

وقد وقع فالريان أسيرا فى يد الفرس، أثناء حربه معهم ومات فى أسره. وخلفه ابنه جالينوس Gallienus (٢٦٠-٢٦٨)، وكان شريكا معه فى الحكم. ومما ينسب الى جالينوس أنه أظهر تسامحا مع المسيحيين، و أصدر منشورا بذلك، واعتبر المسيحية ديانة مصرحا بها^(٢٥).

(22) Schaff, vol. 2, pp. 62, 63.

(٢٣) يوسابيوس ٧: ١٠

(24) Documents of the Christian Church, p. 19.

(٢٥) يوسابيوس ٧: ١٣

(٩) أوريليان (٢٦) Aurelian (٢٧٥-٢٧٠)

نشط في اضطهاد المسيحيين والتنكيل بهم، فأصدر مرسوما جديدا بقتل المسيحيين كان من أثره مذابح مروعة في أماكن شتى.

خلف أوريليان على العرش الامبراطوري ستة أباطرة في فترة الثمانى سنوات التي انتهت باعتلاء ديوكليتيانوس العرش. وتميزت هذه الفترة بالهدوء النسبي، ورفع نير الاضطهاد على المسيحيين، الأمر الذى أدى الى انتعاش الكنيسة، فتمت وتزايد عدد المؤمنين، وأقيمت بعض بيوت العبادة الفاخرة، فى بعض المدن الرئيسية، مزودة بمجموعات من الكتب المقدسة، وأوانى من الفضة والذهب لخدمة الأسرار المقدسة.

لكن قابل هذا من الناحية الاخرى ظهور المشاكل الكنسية وتزايدها، كما بدأت روح العالم تحاول أن تجد طريقها الى الكنيسة. ومن ثم فقد كانت الكنيسة فى حاجة الى نوع من التنقية، وبعض الضيقات التي ترددها الى نقاوتها وتماسكها، وأذكاء نار الحماس والحب والايمان من جديد^(٢٧). ومن ثم كان الاضطهاد المروع الذى شنه ديوكليتيانوس على الكنيسة وجميع المسيحيين فى انحاء الامبراطورية.

(١٠) اضطهاد ديوكليتيانوس وأعوانه (٢٨٤-٣٠٥)

ان كل الاضطهاد السابقة التي شنتها الدولة على المسيحية والمسيحيين، ابتداء من نيرون، لتتضاءل إزاء ضراوة ووحشية سلسلة الاضطهادات التي بدأها ديوكليتيانوس، وأكملها أعوانه. حتى ان البعض يحلو لهم أن يقابلوا بين هذا الاضطهاد العام الاخير، وبين الضربة العاشرة على يد موسى، التي أعقبها الخلاص من العبودية..! ولفظاعة هذا الاضطهاد، اتخذت الكنيسة القبطية بداية حكم هذا الطاغية - وهى سنة ٢٨٤ م - بداية لتقويمها المعروف باسم تاريخ الشهداء^(٢٨).

قيل أن أباه كان عبدا، أو فى القليل كان ينتسب الى أبوين مغمورين. وكان موطنه اقليم دلماتيا بالبلقان. أستطاع بجده وذكائه أن يرتقى حتى وصل الى المركز الاول والاعلى فى الدولة... ويعتبر ديوكليتيانوس - من الناحية السياسية والإدارية - من أكفأ الابطرة الذين حكموا الامبراطورية. وقد وضع من التنظيمات والتشريعات ما يكفل بقاءها، بعد أن زحفت الشيخوخة اليها، وتعرضت لهجمات كثير من القبائل المتبربرة. وفى سنة ٣٠٥ اعتزل الحكم بعد أن اعتلت صحته اعتلالا كبيرا وأصيب

(26) Schaff, vol. 2, p. 63.

(٢٧) يوسابيوس ٨ : ١
(٢٨) بينما لم يبدأ ديوكليتيانوس اضطهاده للمسيحيين الا سنة ٣٠٣.

بلوثة عقلية^(٢٩).

أعوانه:

من هذه التنظيمات التي وضعها ديوكليتيانوس، واستهدف بها إنقاذ الامبراطورية، تعيين مكسيميانوس - وهو قائد محنك - معاوناً له في الغرب، برتبة قيصر سنة ٢٨٥. ثم رقاها الى رتبة أغسطس سنة ٢٨٦ وهي نفس رتبة ديوكليتيانوس. فأصبح بذلك امبراطور للغرب، بينما اختص ديوكليتيانوس بحكومة الشرق. ومكسيميانوس هذا هو المعروف باسم مكسيميانوس هركليوس **Maximianus Herculius**

ثم عاد ديوكليتيانوس ورأى أن يعين مساعداً له، وآخر لمكسيميانوس، برتبة قيصر، لتدعيم حكم الامبراطورية المترامية الاطراف، فعين معه جالريوس **Galerius** للشرق، وقنسطنطيوس للغرب. وكان ذلك سنة ٢٩٢. وأختص كل من هؤلاء الاربعة بحكم الاقاليم الآتية من الامبراطورية:

مكسيميانوس هركليوس لحكم ايطاليا وأفريقيا. وقنسطنطيوس كلوروس **Constantius Clorus** (وهو والد الملك قنسطنطين الكبير). لحكم غاليا (فرنسا الحالية) واسبانيا وبريطانيا. هذا في الغرب. أما في الشرق فحكم ديوكليتيانوس آسيا ومصر وتراقيا، وجعل مقره نيقوميديّة بأسيا الصغرى بينما حكم معاونه جالريوس بادئ الامر شواطئ الدانوب، ثم بعد ذلك في الشرق^(٣٠).

شخصيته^(٣١):

أما عن شخصيته، فقد كان يطالب لنفسه باحترام العبادة كالكاهن الاعظم للاله جوبتر **Jupiter**. وكان يدعو نفسه رب وسيد العالم. احاط ملكه بكثير من دوائر الجنود والخصيان. ولم يكن يسمح لأحد أن يقترب منه الا وهو راعع ولامس الارض بجبهته، بينما يكون هو جالسا على عرش في ثياب فاخرة، أحضرت له خصيصاً من الشرق الاقصى. لكنه على الرغم من كفاءته في الحرب والادارة، كان واقعا تحت سيطرة الخرافات، ويستشير أصحاب العرافة وكهنة الاوثان قبل البدء في مشروعاته^(٣٢).

بدأ عهده باصدار عدة تشريعات لاصلاح الدولة والابقاء على هيبتها، وأجل

^(٢٩) اعتلت صحة ديوكليتيانوس، وأصيب بمرض شديد، أخذ يثقل عليه، في نفس السنة التي أصدر فيها منشوره باضطهاد المسيحيين - أنظر

Dictionary of Christian Biography, vol. 1, p. 836.

(30) Schaff, vol. 2, p. 65.

(31) Ibid, pp. 65, 66 .

(32) Dictionary of Christian Biography, vol. 1. p. 834.

المسألة الدينية حتى يفرغ من المسائل السياسية والادارية ويضمن من جهتها.

المسيحيون في أول عهده (٣٣):

بدأ ديوكلتيانوس عهده مسالما للمسيحيين. وظل هكذا في العشرين سنة الاولى لحكمه يحترم منشور التسامح الذى أصدره سلفه جالينوس. كان معظم خصيانه وضباط قصره من المسيحيين، الى جانب عدد من الاداريين فى الدولة، بل أكثر من هذا، فقد قيل أن زوجته بريسكا Prisca وابنته فالريا Valeria كانتا مسيحيتين. وقيل أنهما كانتا فى صفوف الموعوظين، أو على الاقل تعطفان على المسيحيين (٣٤).

أسباب تحوله عن سياسة التسامح:

أما عن أسباب تحول ديوكلتيانوس عن سياسة التسامح الدينى مع المسيحيين من رعاياه، والتي أنتهجها فى العشرين سنة الاولى لحكمه فلا يمكن تحديدها... قيل انه قصد المعبد ذات مرة ليستشير الآلهة فى أمر هام كما كانت عاداته، واصطحب معه رجال بلاطه، وبينهم مسيحيون. فانتهز كاهن المعبد الوثنى هذه الفرصة وقال للامبراطور "أن الآلهة لا تتكلم فى حضرة أعدائها" وكان يقصد المسيحيين. وبتأثير هذه الكلمات طرد الامبراطور جميع الذين لا يرفعون القرابين للآلهة من البلاط الامبراطورى ومن الجيش (٣٥)... وان كنا لا نستطيع تأييد أو نفي هذه الرواية، لكن حتى لو حدثت، فأنها لم تكن السبب الرئيسى فى تحريك العداوة نحو المسيحيين فى عهد هذا الرجل.

ويكاد يكون هناك شبه اجماع - استنادا الى رواية لكتانتىوس (*) Lactantius معاصره - ان ديوكلتيانوس غير سياسته نحو المسيحيين تحت تأثير جالوريوس معاونه وزوج ابنته فالريا، الذى كان وثنيا متعصبا شرسا. ويصفه لكتانتىوس بأنه وحش مفترس، لبسته بربرية وحشية غريبة عن الدم الرومانى. وكان يستحث صهره ديوكلتيانوس بضرورة سحق الكنيسة المسيحية، التى هى دولة داخل الدولة Imperium in emperis (٣٦).

اضطهاد ديوكلتيانوس وأعوانه:

أصدر ديوكلتيانوس، بالاتفاق مع معاونيه - وتحت تأثير جالوريوس - فى الثالث والعشرين من فبراير سنة ٣٠٣ منشورا يقضى: بهدم الكنائس، حرق الكتب المقدسة، طرد جميع ذوى المناصب الرفيعة وحرمانهم من الحقوق المدنية، وحرمان

(33) Lactantius, De Mortibus Persecutorum, ch. 10.

(34) Schaff, vol. 2, p. 65.

(35) Lactantius, De Mortibus persecutorum ch. 10, De Pressensé, vol. 2, pp. 205,206.

(*) Lactantius: De Mortibus Persecutorum, ch. 9,10,11.

(36) Schaff, vol. 2. p. 66, de pressensé, vol. 2, pp. 203, 204.

العبيد من الحرية أن أصروا على الاعتراف بالمسيحية، ونص المنشور على معاقبة من يخالف دون تحديد العقوبة.

● وبدأ تنفيذ هذا المنشور في الحال، في ٢٣ فبراير سنة ٣٠٣ يوم عيد الانتهاء **Terminalia** (كما لو كانوا قد أرادوا أن يضعوا نهاية للمسيحية) فهدمت كنيسة نيقوميديّة الجميلة التي كانت مبنية على تل في مواجهة القصر الامبراطوري. علق المنشور على حوائط قصر ديوكليانوس نفسه. فتقدم مسيحي أخذته الغيرة ومزق المنشور فظهر بذلك استياءه^(٣٧). فكان جزاؤه الموت حرقا بكل وحشية... وفي نفس الوقت قوى هذا التصرف مشاعر ديوكليانوس العدائية نحو المسيحيين. وسرعان ما سرت موجات الاضطهاد الى كل أقاليم الامبراطورية.

● لكن سرعان ما ازداد الاضطهاد عنفا ووحشية، بسبب الحريق الذي اندلع مرتين في ظرف أسبوعين في قصر ديوكليانوس في نيقوميديّة حيث كان يقيم، بعد صدور منشور الاضطهاد بوقت قصير. وللحال اتهم جالوريوس موظفي القصر وخدمه المسيحيين بتدبير هذا الحريق، ومحاولة حرقه هو وصهره ديوكليانوس أحياء.

● ونسب لكتانتوس المعاصر، حريق القصر الى جالوريوس، الذي افتعل الحريق مرتين لاثارة ديوكليانوس ضد المسيحيين الابرياء... أما الملك قنسطنطين الذي أقام بنفس هذا القصر بعد ذلك بمدة، فقد نسب الحريق للاضاعة، لكن تكرر الحريق يبرر ما ذهب اليه لكتانتوس^(٣٨). والعجيب أن الحريق كان هو السبب في اضطهاد نيرون وديوكليانوس - الاضطهاد الاول والاضطهاد الاخير - وفي كلا الاضطهادين كان الضحايا هم المسيحيون الابرياء. كان نتيجة الحريق مزيدا من الاضطهادات ومزيدا من الوحشية...

● اصدر ديوكليانوس منشورين متلاحقين في مارس سنة ٣٠٣، يقضى أولهما بسجن جميع رؤساء الكنائس^(٣٩)، ويقضى ثانيهما بتعذيبهم بقصد اضطرابهم لجدد الايمان.

● وفي ٣٠ ابريل سنة ٣٠٣ أصدر مكسيميانوس هركليوس المنشور الرابع وهو أسوأها. ويقضى بأرغام جميع المسيحيين - بلا استثناء - في المدن والقرى، في أنحاء الامبراطورية أن يضحوا للآلهة، والا عوقبوا بأشد أنواع العقاب^(٤٠)... أما القصد من هذه المنشورات فكان محو المسيحية من الوجود.

● وأخيرا في محاولة يائسة لمحو المسيحية وبعث الوثنية، أصدر

(٣٧) قيل عن هذا الشاب أنه هو القديس مارجرس الكبادوكي الشهير، وقيل انه شاب آخر اسمه يوحنا والامر غير واضح تاريخيا. (38) Lactantius, ch. 16.

(٣٩) يوسابيوس ٨: ٦
(٤٠) يوسابيوس: شهداء فلسطين ف ٣.

مكسيمينوس دازا^(٤١) Maximinus Daza منشورا خامسا فى خريف سنة ٣٠٨ يقضى بسرعة اعادة بناء مذابح الاوثان، وأن يقدم جميع الرجال والنساء والاولاد، وحتى الاطفال الرضع، الذبائح والسكانب، مع اكراههم على تذوق التقدمات، وتدنيس الاطعمة التى تباع فى الاسواق بسكانب الذبائح وأن يقف الحراس أمام الحمامات ليدنسوا بالذبائح الوثنية، كل من يدخل للاغتسال فيها^(٤٢) وقد استمر هذا المنشور معمولا به لمدة سنتين أو أكثر. ولم يكن أمام المسيحيين الا أن يموتوا شهداء، أو يموتوا جوعا، أو يجحدوا الايمان.

● وفى سنة ٣١١ أمر مكسيمينوس دازا باقامة الهياكل فى كل مدينة وسرعة اعادة الاحراش المقدسة التى كانت قد أزيلت على مر الزمن. وعين كهنة للاصنام، وأقام عليهم فى كل مقاطعة موظفا سياسيا كرئيس كهنة.. ومنح جميع المشعوذين وظائف ادارية، وخلق عليهم أعظم الامتيازات^(٤٣).

● على انه يجب ملاحظة أن نصيب ديوكلتيانوس فى الاضطهاد الاخير الكبير لم يزد عن سنتين وشهرين (٣٠٣-٣٠٥). لكن الاضطهاد استمر بعد ذلك حتى سنة ٣١٣ فى الشرق على يد جالوريوس ومكسيمينوس دازا. وكان أقسى هذه الفترات هى من (٣٠٨-٣١١). بل قيل أن هذا الاضطهاد هو أفظع اضطهاد شهده المسيحيون منذ البداية فى الدولة كلها. وكثير من الشهداء الذين استشهدوا فى الشرق، ونسب استشهادهم لعهد ديوكلتيانوس، استشهدوا فى هذه الفترة (٣٠٨-٣١١). وكان المحرك الاكبر لاضطهاد السنوات الاخيرة هو مكسيمينوس دازا الذى كان يحكم مصر وسوريا.

● هذا وقد كانت الاضطهادات فى الشرق أعنف منها فى الغرب بسبب جالوريوس وابن أخيه مكسيمينوس دازا. أما فى الغرب فكان هناك قنسطنطيوس كلوروس الذى كان يعطف على المسيحيين، وخلفه ابنه قنسطنطين بنفس المشاعر. وكان الاضطهاد غالبا فى أقاليم الامبراطورية، التى كانت تحت حكم مكسنطيوس Maxentius الذى مات سنة ٣١٢. وقد أشار لكتانتىوس اليه كآخر أعداء المسيحية فى الامبراطورية^(٤٤).

مراسيم التسامح الدينى (٣١١-٣١٣)

● كانت اضطهادات ديوكلتيانوس وأعوانه هى آخر مقاومة يائسة للوثنية الرومانية.. ووسط المشاهد العجيبة المتناقضة، التى تجلت فيها بطولة المسيحيين

(٤١) هو ابن أخى جالوريوس، وثق فيه ديوكلتيانوس قبيل اعتزاله الحكم ورفع له لرتبة قيصر سنة ٣٠٥، وأطلق يده فى حكم سوريا ومصر. ويذكر اسمه أحيانا، مكسيمينوس ديا Daia ويعتبر أشر الحكام الذين نكلوا بالمسيحيين.

(٤٢) يوسابيوس: شهداء فلسطين ف ٩.

(٤٣) يوسابيوس ٨: ١٤.

(44) Lactantius: de Mortibus Persecutorum ch. 43:5.

وثباتهم فى وداعة، ازاء وحشية الوثنيين وسطوتهم فى شراسة... بدت الوثنية فى حالة اعياء...

● اعتزل ديوكليانوس الحكم فى أول مايو سنة ٣٠٥ بعد ان انتهى الى نهاية سيئة... أما جالوريوس معاونه وزوج ابنته وخليفته، اذ أصيب بمرض خطير بشع اضطر تحت وطأة الآلام التى كان يعانيتها، أن يصدر فى سنة ٣١١ من مدينة نيقوميديّة مرسوم تسامح للمسيحيين، وفيه يطلب منهم أن يتضرعوا لالههم من أجل سلامته^(١). ورفض مكسيمينوس دازا، أن يوقع على هذا المرسوم.

● صار قنسطنطين امبراطورا على غاليا وأسبانيا وبريطانيا سنة ٣٠٦. تربى فى بلاط ديوكليانوس فى نيقوميديّة، على نحو ما تربى موسى فى قصر فرعون مصر. هرب من وجه جالوريوس الى بريطانيا، ونودى به امبراطورا بلقب أغسطس بواسطة الجيش، خلفا لوالده المتوفى... عبر جبال الألب وانتصر على منافسه مكسنتيوس ابن مكسيميانوس (شريك ديوكليانوس فى حكم الغرب)، عند قنطرة ملفيا على بعد ميل واحد من روما. وباد هذا الطاغية هو وجيشه فى مياه نهر التيبر فى أكتوبر سنة ٣١٢.

● التقى قنسطنطين مع ليكينيوس امبراطور الشرق فى ميلان، ومن هناك أصدر فى مارس سنة ٣١٣ مرسوما للتسامح مع المسيحيين يعرف باسم "مرسوم ميلان"، أعطيت بموجبه الحرية الدينية للمسيحيين ولغيرهم أن يتبعوا الدين الذى يرغبونه^(٢).

● ومن مدينة نيقوميديّة اضطر مكسيمينوس دازا سنة ٣١٣ - قبيل انتحاره بعد هزيمته أمام ليكينيوس - أن يصدر مرسوم تسامح للمسيحيين أسوة بمرسوم ميلان^(٣)، وهو آخر المراسيم.

● وفى محاولة أخيرة يائسة وضعيفة، خرج ليكينيوس على قنسطنطين. وجدد اضطهاد المسيحيين لفترة قصيرة فى الشرق، لكنه هزم أمام قنسطنطين سنة ٣٢٣، فأصبح قنسطنطين هو الحاكم الوحيد للامبراطورية شرقا وغربا^(٤).

وهكذا بقنسطنطين، الذى يعتبر آخر الاباطرة الوثنيين وأول المسيحيين، بدأت فترة جديدة وهامة فى حياة الكنيسة والمسيحيين...

(1) Lactantius, ch. 34.

(2) Ibid, ch. 48.

(٣) يوسابيوس ١٠:٩

(4) Dictionary of Christian Biography, vol. 3, p. 865.